كاتيا

كاتيا (رواية)

ليو تولستوي

ترجمة: لطفي سلطان

تقديم ومراجعة: خالد عوض

الطبعة: ٢٠٢٣

العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة - مصر

هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com

E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

تولستوي ، ليو - ترجمة: لطفي سلطان - تقديم ومراجعة: خالد عوض - كاتيا (رواية)

– الجيزة – أزهى ،٢٠٢٢

١٧٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٥ – ٩ – ٨٦٢٥٢ – ٩٧٧ - ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١٩٤٥٧ / ٢٠٢٢

ليو تولستوي

كاتيا

(رواية)

ترجمة

لطفي سلطان

تقديم ومراجعة

خالد عوض

مقدمة

قال الكاتب والمفكر الفرنسي ذائع الصيت "أناتول فرانس" عن الروائي الروسي الأشهر "ليو تولستوي": «إننا نحني رؤوسنا أمام تولستوي، الذي يفوح منه عطر مملكة الجمال الفكري على الإنسانية جمعاء»، وقال عنه توماس مان: «إن قوة فن تولستوي فوق أية مقارنة». لقد ارتفع إنتاج تولستوي الأدبي ليصبح قمة من قمم الأدب الواقعي الكلاسيكي في القرن التاسع عشر، بفضل موهبته المذهلة، وإدراكه لدور الفنان الذي لخصه تولستوي نفسه بقوله: «إن الفنان، فنان فقط، لأنه يرى المواد لا كما يرغب في أن يراها، بل كما هي في الأصل».

أما الزعيم الروسي "فلاديمير لينين" فقد كتب عن تولستوي بعد وفاته عام ١٩١٠ عدة مقالات، يقول في واحدة منها: «لقد توفي تولستوي ومضت روسيا ما قبل الثورة، روسيا التي عَبَّرَ هذا الفنان العبقري عن ضعفها وقوتها في فلسفته، وصورها في مؤلفاته، لكن في تراثه أشياء لم تذهب مع الماضي.. بل بقيت للمستقبل».

وبالطبع فإن الكثير من تولستوي سيبقى للمستقبل لكي نتعلم منه، ولكن أهم ما يجب النظر إليه والتمعن فيه هو: منهج تولستوي الواقعي، وفهمه للفن، ودور الفن.. وهذا كله يبين في رواياته وقد استخلصه النقاد، لكن تولستوي زاد الأمر وضوحا بأن كتب ذات مرة مقالا قال فيه رأيه بضوح عن الفن، ويكشف عن رؤية ذلك الفنان العبقري لماهية الفن، وحين يفرغ القارئ من مطالعة تلك المقالة التي نشير إليها ، يكتشف «ماهية الفن» التي

خلقت «الحرب والسلام» و«آنا كارنينا»، وغيرها من روائع الروائي الكبير.. إن هذه المقالة تهدم بوضوح كل الأسس التي تقوم عليها النظريات التي تعتبر أن قوة الفن تكمن في جماله، وأن دور الفن هو «الإمتاع».

ففي هذه المقالة يقدم تولستوي تصوره للفن، باعتباره ضرورة رافقت التاريخ البشرى كله، وتتقاطع رؤية الكاتب العملاق مع أفكار ما زالت تشيع: هل للفن هدف؟ أم أن الفن يستهدف المتعة الخالصة، بمعنى هل هناك دور محدد لا بد للفن من القيام به، أم لا؟ وعلى الرغم من الإطالة التى قد يحسها القارئ في شرح تولستوي لفكرة (قدرة الفن المتمثلة في عدوى الآخرين بالمشاعر)، إلا أن القارئ سيلمس أيضًا ما هو جوهري وهام، أي تحديد تولستوي للفن باعتباره وسيلة للتواصل الروحي بين البشر، باعتباره شرطًا من شروط الحياة الإنسانية، مثله في ذلك مثل اللغة، وهو - مثل اللغة - يتخلل كل جوانب حياتنا، ويوسع تولستوي من فهم «الفن»، فيخرجه من الإطار الضيق الذي اعتدنا النظر إليه، ذلك «أن الحياة الإنسانية بأكملها، ممتلئة، ومترعة، بمختلف أنواع الإبداع الفني من كل صنف، بدءًا من أغاني المهد، والنكات، والتقليد الكاريكاتوري، وزينة النساء، والبيوت، والملابس، حتى الطقوس الكنسية، ومواكب الجنازات. كل ذلك نشاط فني».

"وليست العمارة والتماثيل والشعر والرواية، إلا أصغر قسط من ذلك الفن الواسع الذي نتعامل به مع بعضنا البعض في الحياة". إن إدراك الفن على ذلك النحو، لا يوسع منه فحسب، ولكنه يكشف عن كونه ضرورة ملازمة للحياة، ذات هدف، وليس هدفه هو «الجمال» في حد ذاته، بل التواصل، والتعارف الروحي بين البشر.

حياة بسيطة

ولد الكونت "ليف نيكولايافيتش تولستوي" في التاسع من سبتمبر ١٨٢٨، في بوليانا التابعة لمقاطعة تولا في روسيا، نشأ تحت كنف أسرته الأرستقراطية، فوالده هو الكونت نيكولاي تولستوي، ووالدته كانت الأميرة فولكونسكايا، المُنحدرة من سلالة روريك، الذي يُمثل الحاكم الأوّل في تاريخ روسيا، وممّا عُرف عن تولستوي وتناقلته الكتب عنه أنّ طفولته شهدت مآسٍ كثيرة، منها وفاة والدته سنة ١٨٣٠م، أي عندما كان في عامه الثاني، فتولّت واحدةً من قريبات والده رعايته وإخوته، وما إن بلغ السابعة من عمره حتى تُوفّي والده أيضًا، فأصبحت عمّته وصيّة قانونيّة عليه.

وبعد وفاة العمّة انتقل مع إخوته للإقامة مع عمته الثانية في مدينةٍ تُدعى كازان، فتلقّى فيها تعليمه الإبتدائي دون أن يخرج من منزل عمته، على أيدي بعض المعلمين الفرنسيين بالإضافة إلى الألمان، وبحلول عام ١٨٤٣م قام بالالتحاق ببرنامجٍ يختصُّ بتدريس اللغات الشرقية في جامعة كازان، إلّا أنّ الفشل كان نصيبه، ممّا اضطرّه لأن يلتحق بدراسة برنامج القانون الذي لم يلبث فيه فترة طويلة، واستمرّت حياته على هذا المنوال من الالتحاق ببرنامج وترك آخر، حتى ترك الدراسة في جامعة كازان دون أن يحصل على أيّ شهادة منها، فعاد في نهاية المطاف إلى منزل والده، وقرّر أن يُشرف على زراعة الأراضي هناك، إلّا أنّه أيَضًا لم يستمر هذا العمل بسبب كثرة زياراته إلى منطقة تولا وموسكو، وفي هذا الوقت رجع أخوه نيكولاي لمنزلهم بإجازةٍ قصيرةٍ من جيشه، فأقنعه بالانضمام إليه، فوافق تولستوي وسافرا سويًّا إلى الوحدة العسكرية في جبال القوقاز، وبدأ بذلك بالمشاركة في الحروب.

وتزوج الكاتب تولستوي من السيدة صوفي بيرز، التي كانت من أفضل الزوجات وأفضل من رافق تولستوي في حياته بالرغم من أنّها أصغر منه بستة عشر عامًا، وأنجب منها اثني عشر طفلًا، بقي منهم سبعة أطفال والآخرون ماتوا في صغرهم، اتّخذ تولستوي زواجه ملاذًا لهدوء البال والطمأنينة، هاربًا من دوامة أفكاره، ومن البديهيّ أن تكون زوجته صوفي خير عون له في كتابته، فقد قامت بنسخ مخطوط روايته التي حملت اسم "الحرب والسلام" سبع مرات، وفي شيخوخته كان قويًّا متماسكًا، مع بقاء ذاكرته قويّة دون أن تضعف، إلّا أنّه أثناء توجهه لزيارة أخته في ديرٍ كانت ترأسه، في ٢٠ نوفمبر ١٩١٠ توفي في سريره بهدوء، وعلى ما كان يبدو أنّ وفاته كانت بسبب البرد الشديد.

تولستوي والحب

كان تولستوي في التاسعة عشرة من عمره حين كتب في يومياته: "إن صحبة النساء ضرورة كريهة من ضرورات الحياة، لهذا أتمنى أن أبتعد عنهن، فمن يجعلنا نفقد مزايانا الطبيعية، الشجاعة، والحزم، والعقل غير النساء"، لكن سرعان ما غير رأيه، فقد وقع في حب فتاة في الثامنة عشرة من عمرها، هي "زينا مولوستفوف" يقول عنها في رسالة إلى شقيقه الأكبر:"كانت زينا إحدى أولئك الفتيات النادرات، وإن كنَّ قد ولدن للحياة العائلية، لذلك يصممن على اغداق كل كنز الحب الذي يختزنّه في قلوبهن على أحبائهن المختارين، والمحزن إنني لم أكن يوما من بين جميع الناس الذين أثاروا إهتمامها".

وبعد ذلك بأعوام يحب غيرها في سبتمبر عام ١٨٦٢ ، كتب تولستوي

في يومياته: "أنا أحب حباً، لم أحبه في حياتي من قبل، أنا مجنون وسأطلق الرصاص على نفسي إذا سارت الأمور على ما هي عليه، لا يمكن وقف عواطفي نحوها"، وبعدها بيوم كتب "سأذهب في الغد اليهم وسأصارح لهم بكل شيء وإلا فإني أنتحر؟

لكنه كان هو حذراً في مسألة الحب والزواج وكان يعتقد أن الارتباط بامرأة مدى العمر شيء رهي ، فكانت علاقاته الاولى مع نساء كثيرات لا تتعدى أياما وتنتهي باستثناء علاقته بامرأة ريفية تدعى " اكسينيا " اثرت عليه تأثيرا كبيرا دامت علاقاته بها مدة طويلة، وقد كتب عنها فيما بعد قصة الشيطان التي يروي فيها حكاية انسان يخضع لعبودية جسده، لكنه وجد نفسه في أشد الحاجة الى امرأة، وجعل يفكر في زوجته المستقبلية وقد اشترط فيها شروطا خاصة الى ان وقع في حب سونيا ونراه يكتب في يومياته سبتمبر ١٨٦٣ :"لا أعتقد أن مستقبل حياتي مع زوجة يضارع ما يبدو لي الآن مع سونيا .. المستقبل السعيد الهادىء الخالي من المخاوف".

وكانت سونيا إبنة لطبيب الماني الاصل يعمل في بلاط القيصر وكانت اول زيارة لتولستوي لعائلة الطبيب الالماني سنة ١٨٥٦، في تلك الفترة كان قد انتهى من كتابة قصص من سيبستول، وكانت أول كلمة كتبها تولستوي في يومياته بعد الزواج من سونيا قوله:"حظ من السعادة لا يُصدَّق"، لكن السعادة لم تدم طويلا فسرعان ما كدّر صفوها الغيرة، كانت سونيا تتنقل في قراءة أعمال زوجها، ولم يكن يخامرها شك بأنه يحاول أن يرسم صورة للمرأة الحقيقية التي في مخيلته ، كان تولستوي من جانبه قد وجد مفهوما جديدا للحب عند شوبنهور، والذي يفند فيه جميع مبادىء الحب الرومانسي، وهو

يعتقد أن جميع الشعراء والكتّاب الرومانسيين قد أخطأوا في سعيهم إلى تصور الحب من حيث هو الشهوة الانسانية، فمثل هذا الرأي يُعد وهماً مطلقاً، أما الحقبقة فهي أن الحب هو إلا إنعكاس لإرادة عمياء في الحياة وغريزة ل اعقلانية لاستمرار النوع البشري".

ويظل تولستوي يكتب عن الحب كثيرا في يومياته وفي رواياته، ومنها آنا كارنينا ومنها كاتيا وهي اسم التدليل لكاترين، وكاتيا التي تشرف اليوم بتقديمها للقارىء العربي كهدية من "وكالة الصحافة العربية ناشرون" كانت رواية مجهولة لتولستوي تم اكتشافها بعد وفاته، ومثلهما كذلك رواية "نهاية حب"، وفيها كلها كان تولستوي يهتم بالبحث عن الهدف والمغزى من الحياة وكيفية معايشتها وظهر ذلك بمعظم رواياته وفى سيرته الذاتية التى أوضحت شغفه بصنع حياة لها معنى تمنعه من التفكير بالانتحار عندما لا يجد هدفا للحياة.

والآن جاء دور الرواية نفسها فلنضعها بين يديك عزيزي القارىء.

خالد عوض

الفصل الأول

كنا في حداد على وفاة والدتنا التي ماتت في الخريف الماضي.. وقد قضينا الشتاء كله في الريف أنا و"ماشا" و"سونيا"..

وكانت "ماشا" صديقة قديمة للأسرة، إذ كانت مربيتنا وتولت تربيتنا جميعًا.. ولست أبالغ إذا قلت إن ذكرياتي وشعوري نحوها بالمودة قديمان قدم شعوري بوجودي على قيد الحياة..

وكانت "سونيا" شقيقتي الصغرى..

ومرّ بنا الشتاء حزينًا معتمًا في بيتنا القديم ببوكروفسكي.. وكان الجو شديد البرودة والعواصف حتى أن الجليد جاوز ارتفاع النوافذ، بحيث ظلت مغطاة بصورة تكاد تكون مستمرة بالثلوج، وبحيث لم نستطع من ناحية أخرى أن نخرج أو نتنزه في أي مكان طيلة الشتاء..

وكان من النادر أن يأتي لزيارتنا أحد.. وحتى هؤلاء الذين كانوا يأتون لزيارتنا كانوا لا يشيعون الفرح أو البهجة في بيتنا، فقد كانوا يبدون جميعًا بوجه حزين، وكانوا يتكلمون بصوت خفيض كأنهم يخشون أن يوقظوا أحدًا، وكانوا يحذرون الضحك ويكثرون من التنهدات.. وغالبًا ما كانوا يبكون وهم ينظرون إليّ، وخاصةً حين يرون شقيقتي المسكينة سونيا مرتدية ثوبها الصغير الأسود.. كل شيء في البيت كان لا يزال ينمّ عن

الموت على نحوٍ ما، وكان رعب الموت وهوله يسودان جو المكان. وقد ظلت غرفة والدتي مغلقة، وكنت- كلما مررت على مقربة منها وأنا في طريقي لأنام- أحس بألم شديد مع إغراء لا يقاوم، كان يدفعني دائمًا إلى إلقاء نظرة سريعة على هذه الغرفة المهجورة الباردة.

وكنت وقتئذٍ في السابعة عشرة، وكانت والدتي تنوي في نفس العام الذي ماتت فيه أن ترحل لتقيم بالمدينة لتربيتي هناك.. فكان فقدها بالنسبة لي خسارة كبيرة.. ولكن يجب عليّ أن أعترف بأنني كنت أشعر فضلًا عن الحزن بفراقها- وأنا الشابة الجميلة كما كنت أسمعهم جميعًا يقولون- بألم خاص لاضطراري لتمضية شتاء آخر بالريف في هذه الوحدة المجدبة. وقبل أن تحل نهاية هذا الشتاء، كان شعوري بالأسى والعزلة قد ازداد في نفسي إلى حد إنني لم أعد أترك غرفتي أو أفتح "البيانو" أو أتناول في يدي كتابًا على الإطلاق.

***

وحينما كانت ماشا تدعون إلى الاهتمام بشيء أو بآخر، فإنني كنت أرد عليها قائلة: "لا أريد.. لا أستطيع" في الوقت الذي كان فيه صوت يتردد في أعماق نفسي ليسألني قائلًا "ما فائدة ذلك؟ لماذا أفعل هذا الشيء بينما يذهب أحسن أيام حياتي هباءً، لماذا؟ ولم يكن عندي من جواب على هذا السؤال دائمًا غير الدموع؟

وكان يقال لي إنني أزداد هزالًا وقبحًا طيلة كل هذا الوقت، ولكنني لم أكن أعبأ بذلك.. فلماذا؟ ومن أجل من؟ كان يمكنني أن أجد نفعًا في

مقاومة هذا الهزال؟ وكان يبدو لي أن حياتي بأسرها لابدّ أن تنقضي في هذه الصحراء.. في قلب هذه الحسرة وهذا الضيق اللذين لا علاج لهما، حيث استسلمت لمشاعري الخاصة إلى حد إنني لا أحس بالقوة ولا بالرغبة في أن أنتزع نفسي منها..

ولما أوشك الشتاء أن ينتهي، بدأت ماشا تشعر بالقلق من أجلي.. فاستقر رأيها على أن تصحبني في رحلة إلى الخارج، وهو قرار كان يمكن تحقيقه.. ولكنه كان يتطلب مالًا، في وقت كنا لا نكاد نعرف فيه ماذا كان دخلنا من الميراث الذي تركته والدتنا، وكنا نترقب في كل يوم مجيء الوصي علينا، وكان لابد من مجيئه ليفحص حالة أعمالنا.

وقد جاء أخيرًا خلال شهر مارس..

وقالت لي ماشا– ذات يوم– بينما كنت أهيم كالظل بلا عمل في كل ركن من أركان البيت دون أية فكرة في رأسي أو رغبة في قلبي: "الحمد لله.. ها هو ذا "سيرج ميخايلوفتش" قادم للعشاء" ثم أضافت تقول بعد لحظة صمت: "ويجب أن تتزيني يا صغيرتي كاتيا[١].. ماذا عساه يظن بك؟ أنه يحبكما أنتما الاثنتين!".

وكان سيرج ميخايلوفتش أقرب الجيران إلينا.. وكان صديقًا للمرحوم والدي على الرغم من أنه كان يصغره في السن بكثير. وفضلًا عن ذلك التغيير المستحب الذي أحدثه وصوله في مشروعاتنا للمستقبل، بإتاحته الفرصة لنا لإمكان مغادرة الريف؛ فإنني كنت قد اعتدت منذ الطفولة أن أحبه وأحترمه..

---

[١] "كاتيا" تعني "كاترين".

وربما كانت ماشا تنصحني بأن أتزين لأنها كانت تقدر أن تغيرًا آخر كـان لابـدّ أن يحـدث، وإن سـيرج كـان الشـخص الوحيـد- مـن بـين كـل معارفي- الذي كان يؤلمني أن أبدو أمامه في صورة غير مستحبة في يوم من الأيام، لا لأنني كنت أشعر نحوه بتعلق قديم وحسب- شأن كل فرد في البيت، ابتداءً من ماشا وسونيا إلى آخر خادم فيه. ولكن لأن هذا التعلق كان يتخذ طابعًا خاصًا من عبارة كانت والدتي قد قالتها أمامي.. قالت ذات يوم: "إنه مثال الزوج الذي أتمناه لكِ" وفي ذلك الحين، بدت لي فكرة كهذه غير مستساغة، بل وغير مرغوب فيها؛ إذ أن البطل الذي كنت أتخيله كان يختلف كل الاختلاف.. فبطلي أنا كان ينبغي أن يكون شابًا نحيلًا رشيقًا.. وكان سيرج ميخايلوفتش على العكس أكبر سنًا، كان طويل القامة قوي البنية.. وعلى قدر ما كنت أستطيع أن أحكم، كان ذا مزاج لطيف وطابع محبوب للغاية. ومع ذلك، كان كلام والدتي قد تغلغل مـن قبـل في خيـالي.. وقبـل سـت سـنوات- وقـت أن كنـت في الحاديـة عشرة- كان يخاطبني بغير كلفة، وكان يلعب معي ويدعوني "بالبنفسجة الصغيرة". ومنذ ذلك الحين، كنت أسأل نفسي في خوف عما عسى أن أفعل لو بدا له يومًا أن يتزوجني!

وقبيل العشاء الذي أضافت إليه ماشا طبقًا من "السبانخ" وآخر من الحلوى، وصل سيرج ميخايلوفتش، ونظرت من النافذة في اللحظة التي كان يقترب فيها من البيت في عربة صغيرة.. وما كاد يبلغ المنعطف حتى أسرعت بالذهاب إلى الصالون، وذلك حتى لا أظهر إنني انتظرته على الإطلاق، ولكنني حينما سمعت حركة في غرفة الانتظار يتبعها رنين صوته

المجلجل ووقع خطوات ماشا، تخلى عني صبري وخففت بنفسي إلى لقائه!

كان ممسكًا بيد ماشا.. وكان يتحدث إليها بصوت مرتفع.. وما كاد يلمحني حتى توقف عن الكلام، ونظر إليّ لبضع ثوان دون أن يحييني.. فأوقعني هذا منه في حيرة شديدة، وشعرت بالدماء تصعد إلى وجنتي! ثم قال لي بصوته في اللهجة البسيطة الحاسمة، وهو يترك يد ماشا ويقترب مني: "كاتيا.. هل يمكن أن تكوني أنت يا كاتيا؟ هل يمكن أن يتغير المرء هكذا؟ كم كبرت! بالأمس كنت بنفسجة.. واليوم وردة متفتحة".

وبيده العريضة، أمسك بيدي وشد عليها بقوة.. إلى حد أنه كاد أن يؤلمني، وظننت أنه سيقبلها فانحنيت أمامه، ولكنه أخذها مرة أخرى ونظر مباشرة في عيني بنظرته المرحة الحازمة.

***

كانت قد انقضت ستة أعوام لم أره فيها، ولاحظت أنه قد تغير كثيرًا.. فقد كبر في السن، وأسمرت بشرته، وترك سالفيه ينموان، وهو أمر كان لا يلائمه كثيرًا.. ولكنه احتفظ على الدوام بنفس الخصال البسيطة، والوجه المنبسط الأمين ذي الملامح المعبرة، وبريق عينيه الذي يشع صفاء، وابتسامته الجميلة التي تشبه ابتسامة طفل.

ولم تنقضِ خمس دقائق حتى تخلى عن موقف الزائر البسيط، وأتخذ حيالنا موقف الضيف الذي يرفع الكلفة.. بل أنه أتخذ نفس هذا الموقف حال جميع من كانوا في البيت الذين راحوا يتسابقون في تقديم خدماتهم

له، ويظهرون له سرورهم البالغ لوصوله.

ولم يتصرف سيرج ميخايلوفتش تصرف الجار الذي يزور منزلًا بعد وفاة أم، معتقدًا أن من واجبه أن يعبّر وجهه عن العطف والمواساة.. وإنما بدا- على العكس- مرحًا كثير الحديث، ولم يقل كلمة واحدة عن والدتي، حتى إنني بدأت أشعر بأن عدم اكتراثه هذا غريب.. بل وغير لائق من جانب رجل يرتبط بنا بصلة وثيقة.. ولكن سرعان ما أدركت أن هذا لم يكن عدم اكتراث منه، وأنه كان يضمر في نفسه نية تحتم عليّ أن أعترف له بالجميل..

وفي المساء، قدمت لنا ماشا العشاء بالصالون- في نفس المكان الذي اعتدنا أن نتناوله فيه أيام والدتنا- وجلست أنا وسونيا إلى جوارها، وأحضر لها "جريجوار" المجوز غليونا قديمًا لوالدي كان قد وجده.. وأخذ يذرع أرض الغرفة، تمامًا كما كان يفعل فيما مضى..

وتوقف جريجوار فجأة وقال لنا:

- لشدة ما تغير هذا البيت تغيرًا مروعًا يدعو إلى التفكير!

فأجابت ماشا وهي تتنهد وتضع الغطاء فوق وعاء الشاي الذي كان يغلي على الموقد:

- نعم..

ونظرت إلى سيرج ميخايلوفتش، وقد أوشكت أن تنفجر باكية..

وسألني سيرج قائلًا:

– إنك تتذكرين والدك دون شك؟!

– قليلًا..

فقال في بطء وهو يلقي من فوق رأسي نظرة شاردة، وقد بدت على وجهه دلائل التفكير:

– كم كان يكون طيبًا بالنسبة إليك لو كان والدك اليوم لا يزال على قيد الحياة!

ثم أضاف يقول في لهجة أكثر بطئًا: "لقد أحببته كثيرًا.." وفي تلك اللحظة، بدا لي أن عينيه كانتا تلمعان ببريق أخاذ..

وصاحت ماشا تقول:

– وها هو ذا الله قد أخذ والدتنا كذلك!

وفي الحال، ألقت المنشفة على وعاء الشاي، ثم أخرجت منديلها وأخذت تجهش بالبكاء.

وقال سيرج:

– نعم.. لقد حدثت تغيرات مروعة في هذا البيت.

قال هذا ونظر خلفه، ثم رفع صوته قائلًا: "اعزفي لي شيئًا يا كاتيا الكساندروفنا"!

وقد سرّني أنه طلب مني هذا الطلب في ألفاظ بسيطة للغاية تنطوي على صداقة آمرة، فنهضت وذهبت إلى جواره..

فقال سيرج، وهو يفتح نوتة موسيقية لبيتهوفن: "خذي.. اعزفي لي الحركة البطيئة من هذه (السوناتا).."

ثم أضاف قائلًا: "أريني كيف تعزفين؟".. وذهب ليشرب قدح الشاي في ركن من الصالة.

ولست أدري لماذا شعرت بأنه كان من المحال أن أرفض ما طلب، أو أن أتظاهر بالرفض، بحجة إنني لا أجيد العزف.. بل إنني جلست –على العكس– إلى البيانو في خضوع، وبدأت أعزف وأنا أبذل جهد طاقتي، بالرغم من إنني كنت خائفة بعض الشيء من تقديره لعزفي، خاصة وإنني كنت أعرف مدى درايته بالموسيقى وتذوقه لها..

ونقلني هذا اللحن البطيء إلى أحاديثنا التي جرت قبل تناول الشاي، وكأنني أتذكر شيئًا بعيدًا.. وكان عزفي لا بأس به، وأنا واقعة تحت تأثير هذا الشعور، ولكنه لم يشأ أن يدعني أنتقل إلى عزف الحركة الثالثة من "السوناتا".

وقال وهو يقترب مني:

– كلا.. إنك لن تعزفيها جيدًا.. قفي عند هذه المقطوعة الأولى التي لم تكن سيئة، وأرى إنك تفهمين الموسيقى..

وقد غمرني هذا الإطراء المعتدل بالفرح إلى حد إنني شعرت بالدماء تصعد إلى وجنتي.. وكان جديدًا عليّ، ولطيفًا جدًا بالنسبة إليّ، أن يحدثني صديق للأسرة بطريقة جادة– فيما بيني وبينه– لا كما لو كان يتحدث إلى طفلة، كما كان يفعل قديمًا..

وحدثني سيرج عن والدي، فقص عليّ كم كانا دائمًا على وفاق، وعاشا معًا عيشة لطيفة بينما كنت منهمكة في لعبي وعاكفة على كتبي المدرسية.. وبدا لي والدي لأول مرة من خلال هذا الحديث، ذلك الرجل الطيب البسيط الذي لم أكن قد عرفته حتى ذلك الحين. وسألني أيضًا عما أحبه، وما أحب قراءته.. كما سألني عمّا كان في نيتي أن أفعل، وكان خلال ذلك يوجه إلى النصح. ولم يعد إلى جواري ذلك الرجل المرح الذي كان يحب المزاح و"المعاكسة"، بل بدا لي سيرج رجلًا جادًا صريحًا ودودًا، وشعرت نحوه في نفس الوقت باحترام لا إرادي ممزوجًا بالاستلطاف. وكان هذا الشعور حلوًا ولطيفًا في نفسي، وكنت أحس معه– أثناء الحديث– بتوتر كان يشملني على نحو لاشعوري. وكانت كل كلمة أنطق بها تشعرني بالخوف، وكنت أتمنى كثيرًا أن أكون أنا نفسي جديرة بعطفه، وهو الذي كان إلى ذلك الحين لا يعطف عليّ إلا بوصفي ابنة لوالدي!

وعادت إلينا ماشا بعد أن لازمت سونيا حتى استغرقت في النوم، وشكت إلى سيرج من خمولي الذي كان يؤدي دائمًا إلى إنني كنت لا أجد شيئًا أقوله.

فقال مبتسمًا، وهو يهز رأسه نحوي في عتاب:

– آه! إنها لم تحدثني إذن عمّا هو أهم!

فأجبته قائلة:

– ماذا كان عندي لأحدثك عنه؟ أو تريد أن أقول لك إنني كنت أتضايق كثيرًا.. ولكن هذا الضيق سينتهي..

وكان يبدو لي الآن حقًا أن ما كان بي من الضيق سينتهي، بل أنه كان قد زال بالفعل ولن يعود.!

واستمر في حديثه قائلًا:

- ليس من الصواب ألا يعرف المرء كيف يحتمل الوحدة..

أمِنَ الممكن أن تكوني حقًا قد أصبحت آنسة؟

فأجبته قائلة وأنا أضحك:

- طبعًا.. إنني اعتقد أنني أصبحت كذلك!

- كلا، كلا.. أو على الأقل: إنك أصبحت آنسة ماكرة لا تعيش إلا ليعجب بها الناس، وحين تكون على انفراد يتملكها الخمول ولا يعود يعجبها شيء.. وهي تفعل كل شيء من أجل المظهر وحسب، ولا تفعله لذاته..

فقلت لمجرد أن أقول شيئًا:

- إن لديك هنا فكرة حسنة عني!

فأجاب قائلًا بعد لحظة صمت:

- كلا.. إن فيك شيئًا من والدك..

وأحدثت نظرة سيرج الطيبة اليقظة مرة أخرى سحرها في نفسي وأشاعت في اضطرابًا غريبًا..

وفي تلك اللحظة فقط، لاحظت أن خلال هذا الوجه الذي كان

يبدو مرحًا لأول نظرة، وتحت هذه النظرة التي ينفرد بها وحده والتي يبدو للمرء لأول وهلة أنه لا يقرأ فيها إلا الصفاء.. لاحظت أن تفكيرًا عميقًا كان يمتزج في أعماق نفسه بمسحة من الحزن، وإن ذلك كان يزداد بمرور الوقت شدة ووضوحًا!

واستطرد سيرج يقول:

– ينبغي ألا تتضايقي.. فلديك الموسيقى التي تفهمينها، ولديك الدراسة.. والكتب، وأمامك حياة بأسرها.. وأنت الآن في اللحظة التي ينبغي أن تتأهبي فيها للحياة بحيث لا تجدين مجالًا للشكوى منها في المستقبل.. وإن لم تفعلي ذلك، فبعد عام يكون قد فات الأوان.

كان سيرج يحدثني هكذا على نحو ما يفعل الوالد أو العم.. وكنت أدرك أنه كان يبذل جهدًا مستمرًا ليبقى دائمًا في مستواي.. وكان هذا يصدمني بعض الشيء، وكان يحزّ في نفسي أن يعتقد اعتقادًا راسخًا بأنني أدنى منه إدراكًا ومعرفة.. ولكن كان يبدو لي لطيفًا من ناحية أخرى أن يعتقد أن من واجبه أن يبذل هذا الجهد في سبيل توجيهي وإرشادي..

وانقضت بقية السهرة في حديث بينه وبين ماشا عن الأعمال.. وقال لي وهو ينهض أخيرًا ويقترب مني، ثم يمسك بيدي:

– والآن.. طاب مساءك يا عزيزتي كاتيا..

وسألته ماشا قائلة:

- متى نراك؟

فقال وهو لا يزال يمسك بيدي:

- في الربيع.. إنني راحل الآن إلى "دانيلو فكا"، حيث توجد أملاكنا الأخرى.. وسأشرف- بعض الوقت- على العمل هناك، وأدبر ما أستطيع أن أدبره، ثم أمرّ بموسكو بعد ذلك.. وفي الصيف يستطيع كل منّا أن يرى الآخر.

- ولماذا هذا السفر لوقت طويل؟

قلت له ذلك وقد آلمني نبأ سفره.. إذ كنت آمل في الواقع أن أراه كل يوم، وشعرت فجأة بصدع شنيع في قلبي.. ومن المحتمل أن يكون ذلك قد بدا في عيني، وفي نبرات صوتي..

وقال لي سيرج بلهجة بدت لي راكدة وباردة أكثر مما ينبغي:

- هيا.. اشغلي نفسك أكثر من هذا، واطردي الكآبة والسأم..

ثم أضاف قائلًا وهو يفلت يدي دون أن ينظر إليّ:

- سوف أراك مرة أخرى في الربيع

وفي المدخل، حيث تبعناه لتوديعه.. أسرع بارتداء معطفه.. ومرة أخرى بدا عليه أنه يتحاشى أن ينظر إليّ.. فقلت في نفسي: "إنه يكلف نفسه بهذا جهدًا لا طائل تحته.. فهل من الممكن أن يفكر- وهو ينظر إليّ- في أن يسعدني وسبب لي سرورًا عظيمًا؟ إنه رجل ممتاز، وطيب للغاية.. هذا كل ما في الأمر".

ومع ذلك، فقد لبثت أنا وماشا وقتًا طويلًا دون أن ننام، ونحن نتابع الحديث، لا عنه وإنما عن الكيفية التي سنمضي بها الصيف، وعن المكان والطريقة التي سنقضي بها الشتاء.. إنها مشكلة ضخمة! لماذا؟ لقد كان يبدو لي في بساطة ووضوح أن الحياة يجب أن تكون سعيدة حافلة بأسباب السعادة.. وبالنسبة للمستقبل، كان يستحيل عليّ أن أتصور شيئًا آخر غير السعادة، كما لو كان مقرّنا المعتم القديم في بوكروفسكي قد امتلأ فجأة بالحياة والنور.

الفصل الثاني

وأقبل الربيع.. فتبدد ما كان قد ألم بي من الضيق، لتشيع في نفسي أحزان الربيع الحالة التي تثيرها الآمال المجهولة والرغبات المكبوتة.. ومع ذلك، لم تعد حياتي كما كانت في بداية الشتاء؛ إذ أصبحت أعني بسونيا وبالموسيقى والدراسة، وكنت أذهب إلى الحديقة حيث كنت أهيم وقتًيا طويلًا، طويلًا جدًا، وأنا وحيدة خلال الممرات، وكنت أجلس في بعض الأحيان على مقعد من المقاعد.. والله يعلم ما كنت أفكر فيه وما كنت آمله وأتمناه!

وكنت أسند خدي في بعض الأحيان إلى راحة يدي، وأتكئ على نافذة غرفتي، وخاصة في الليالي المقمرة، وأظل هكذا حتى الصباح.. أحيانًا أخرى، كنت أنزل– دون أن تعلم ماشا – إلى الحديقة، وأنا أرتدي ثياب النوم، ثم أفرّ إلى البركة وسط الندى، وقد ذهبت ذات مرة حتى الحقول.. أو كنت أتنزه وحدي الليل بطوله في أرجاء الحديقة الكبيرة.

والآن، يصعب عليّ أن أتذكر– أو على الأقل أن أفهم– تلك الأحلام التي كانت تراود خيالي وتملؤه في ذلك الحين.. وحتى لو استطعت أن أتذكرها، فإنه يصعب علي أن أصدق أن تلك الأحلام كانت أحلامي؛ نظرًا لشدة غرابتها وتجاوزها حدود حياتي الواقعية!

***

وعـاد سـيرج ميخـايلوفتش مـن جولتـه في أخـريات شـهر مـايو كما وعدني. وجاء لرؤيتنا ذات مساء، بينما كنّا لا نتوقع مجيئه على الإطلاق.. وكنّا نجلس يومئذٍ في شرفة البيت ونتأهب لتناول الشاي.. وكانت الحديقة بأسرها قد اكتست ثوبًا من الخضرة، وفي كل موضع في بوكروفسكي كانت البلابل قد أقامت مساكنها بين أغصان الشجر وأوراق النبات. وهنا وهناك، كانت كتل كثيفة من الزهر ترفع رؤوسها ذات الألوان البيضاء والبنفسجية وهي توشك أن تتفتح. وكانت أوراق الأشجار في الممر الذي تقوم على جانبيه أشجار البلوط تبدو لامعة شفافة تحت أشعة الشمس الغاربة. وكانت الظلال المنعشة تمتد على طول الشرفة، بينما كان ندى المساء الغزير يغمر الأعشاب. ومن الفناء الذي يقع خلف الحديقة، كانت تسمع آخر ضوضاء النهار وأصوات الأغنام وهي تعود إلى حظيرتها.

***

وكان "نيكون" المجنون المسكين، يمرّ– في تلك اللحظة– أسفل الشرفة وهو يحمل برميلًا.. وفجأة، أنبثق سيل من الماء البارد من خرطوم "الرش"، وأنطلق ليرسم دوائر سوداء على الأرض التي حُرِثَت حديثًا حول سيقان شجر "الدهليا". وأمامنا في الشرفة فوق غطاء ناصع البياض، كان إبريق الشاي يلمع وهو يغلي فوق الموقد، وقد أنبعث منه بريق ساطع، يحيط به وعاء من المربّى وبعض الكعك والحلوى.. وكانت ماشا تغسل أقداح الشاي بيديها البيضتين كربة بيتٍ ممتازة. أما أنا، فكنت جائعة.. فلم أنتظر الشاي، والتهمت رغيفًا بأكمله مدهونًا بطبقة

كثيفة جدًا من القشدة الطازجة.. وكنت أرتدي في ذلك المساء بلوزة" من التيل ذات أكمامٍ مفتوحة بعض الشيء، وأغطي رأسي بمنديل كنت ألفّ به شعري المبتل..

وكانت ماشا أول من لمحت سيرج من خلال النافذة، فصاحت تقول:

– آه! هذا سيرج ميخايلوفتش.. لقد كنا نتحدث عنك منذ لحظات.

فنهضتُ لأذهب لإبدال ملابسي، ولكنه فاجأني في نفس اللحظة التي كنت أتجه فيها نحو الباب، وقال وهو ينظر مبتسمًا إلى رأسي وإلى المنديل الذي كان يغطيه:

– هيا يا كاتيا، ليست هناك رسميات في الريف، وإنك لا تلتزمين مثل هذا التشدد أمام جريجوار، وأريد أن أكون مثله بالنسبة إليك..

ولكن.. كان يبدو لي واضحًا أن سيرج لم يكن ينظر إليّ كما يفعل جريجوار، وقد حيرني ذلك وأشاع في نفسي الاضطراب فأجبته قائلة وأنا أبتعد:

– سأعود في الحال، فصاح قائلًا وهو يتتبع خطاي:

– أي ضرر في ذلك؟ إنك تبدين هكذا كفلاحة شابة وقلت في نفسي، وأنا أصعد الدرج مسرعة لأبدل ملابسي:

– لشدة ما كانت غريبة نظرته إليّ! وأخيرًا.. نحمد الله على أنه قد أتى وسنكون أكثر مرحًا..

وألقيت على نفسي نظرة في المرآة، ثم انطلقت أنزل في سرعة وقد تملكني السرور، وبلغت الشرفة وأنا لاهثة الأنفاس دون أن أخفي شغفي..

***

كان سيرج جالسًا إلى جوار المائدة يتحدث إلى ماشا عن الأعمال وحين لمحني، ألقى إليّ بابتسامة خفيفة، ثم تابع الحديث.. وكانت أعمالنا– على حد قوله– في حالة مُرضية للغاية. ولم يعد أمامنا الآن إلا أن نقضي الصيف في الريف، ثم يكون في وسعنا أن نرحل بعد ذلك إلى مدينة بطرسبرج أو الخارج لتعليم سونيا، وقالت ماشا:

– كم يكون جميلًا لو أتيت معنا إلى الخارج، فإننا إذا رحلنا وحدنا فسنكون كأننا في غابة..

فأجاب وهو يمزج بين الجد والهزل:

– آه! ليت الله يمكّنني من أن أطوف معكن حول العالم، فقلت حينئذٍ:

– ليكن ذلك.. هيا! لندر معًا حول العالم!

فهز رأسه مبتسمًا ثم قال:

– ووالدتي وأعمالي؟ هيا! دعينا من هذا وقصي عليّ كيف قضيت

الوقت.. أيمكن أن تكوني قد اكتأبت أيضًا؟

وقصصت على سيرج أنني عرفت أن أشغل نفسي بدونه ، وألا أتضايق، وأكدت له ماشا ذلك.. فأثنى علي ووجه إليّ كلمات ونظرات مشجعة وكأنني طفلة، وكان له فعلًا الحق في ذلك. وبدا لي من المناسب أن أخبره تفصيلًا وبصراحة تامة بكل ما فعلته من خير، واعترفت له بكل ما كان يمكن أن يستحق تأنيبه وكأنني أعترف أمام قسيس!

***

وكانت الأمسية من الجمال بحيث بقينا في الشرفة بعد أن رُفعَت مائدة الشاي.. وكان الحديث ممتعًا إلى حد أنني لم أُلاحظ أن ضوضاء البيت كانت تتلاشى من حولنا دون أن أشعر.. ومن كل مكان، كانت الروائح النفاذة تنبعث من الأزهار، وكانت قطران الندى الغزيرة تغرق الأعشاب، وكانت البلابل تغرد على مقربة منّا وهي تلوذ بأغصان الورود الكثيفة.. ثم تعود إلى الصمت حين تسمع أصواتنا.. وكانت السماء المرصعة بالنجوم تبدو كما لو كانت تهبط لتقترب من رؤوسنا.

ولم أفطن إلى هبوط الليل إلا حينما سمعت فجأة حفيف وطواط مكتوم، كان يرفرف مذعورًا حول ردائي الأبيض.. فالتصقت بالجدار وأنا على وشك أن أصيح، غير أن الوطواط فرّ من تحت سقف الشرفة وأنطلق يهيم في ظلام الحديقة.

وقال سيرج ميخايلوفتش، وهو يقطع علينا الحديث:

– كم أحب بيتكن وأرضكن في بوكروفسكي.. إن المرء لا يسعه إلا

أن يتمنى البقاء في هذه الشرفة كل حياته!

فأجابته ماشا قائلة:

– حسنًا.. فلتبقَ فيها إذن..

فقال سيرج:

– آه! أبقى؟ إن الحياة لا تتوقف!

فعادت ماشا تسأله قائلة:

– لماذا لا تتزوج إذن؟ إنك خليقٌ بأن تكون زوجًا ممتازًا .

فقال وهو يبتسم:

– لماذا؟ لأن الناس لم يعودوا – منذ زمن طويل– يعتبرونني رجلًا يصلح للزواج.

– ماذا؟ في السادسة والثلاثين من عمرك وتزعم أنك تعبت من الحياة؟

– نعم، بالتأكيد.. بل أنا متعب إلى حد إنني لم أعد أطلب سوى الراحة.. ولكي يتزوج المرء، يجب أن يكون لديه ما يقدمه غير التعب.

وأومأ إليّ برأسه واستطرد يقول: "هيا.. اسألي كاتيا.. فهي بحق ذلك الشخص الذي يجب أن نزوجه، ويكون دورنا نحن أن ننعم بسعادتها مع من تتزوجه!".

***

ولمست في نبرات صوته حزنًا دفينًا ممزوجًا ببعض التوتر، وساد الصمت بيننا لحظة، ثم قال سيرج وهو يتجه نحو المائدة:

– تصورا.. لو أنني تزوجت فجأة فتاة شابة في السابعة عشرة كاتيا ألكسندروفنا! إن هذا كان خليقًا بأن يكون حادثًا مؤسفًا! حقًا إنه مثل جميل ينطبق تمامًا على هذا الظرف!

وأخذت أضحك في انطلاق، وإن كنت لم أستطع أن أدرك على الإطلاق لماذا كان يبدو مسرورًا هكذا، ولا هذا الظرف الذي كان يعنيه.

والتفت إليّ سيرج وقد بدا عليه أنه يمزح، ثم أضاف قائلًا: "حسنًا! ضعي يدك على قلبك وقولي لي الحقيقة.. أفلا تكون كارثة كبيرة بالنسبة إليك أن تربطي حياتك برجل عجوز فات زمنه، وأصبح لا يريد إلا البقاء حيث هو.. بينما أنتِ– يعلم الله– تودين أن تجري هنا وهناك وفق هواكِ؟".

ولزمتُ الصمت، وقد ألم بي الضيق، ولم أدرِ بماذا أجيب! فضحك سيرج ثم قال: "إنني لم آت لأطلب يداك.. ولكن، قولي لي حقًا إذا كنت تحلمين بهذا الزوج، وأنت تتنزهين في المساء خلال ممرات الحديقة، وإن هذا الزواج لا يكون مصيبةً كبرى؟"

فشرعت أقول:

– ليس إلى هذا الحد..

فقاطعني قائلًا:

– وأنه لن يكون كذلك خيرًا كبيرًا!

– نعم.. ولكني قد أكون مخطئة..

– ها أنتِ ذي ترين يا ماشا أنها على حق.. وإني لمعجب بصراحتها ومسرور تمامًا لأن هذا الحديث قد دار بيننا، وإن كنت أعترف بأن زواجًا كهذا يكون بالنسبة إليّ كارثة ما بعدها كارثة..

فقالت ماشا وهي تتنهد:

– يا لك من رجل فريد! إنك حقًا لم تتغير كثيرًا..

وغادرت ماشا الشرفة لتأمر بتقديم العشاء، فلبثنا صامتين.. وكان كل شيء من حولنا صامتًا كذلك.

***

وكان البلبل الوحيد قد استأنف تغريده من جديد، ولم يكن تغريده في هذه المرّة تغريد بداية المساء المتقطع المتردد، بل تغريد الليل الهادئ البطيء الذي كانت نغماته تملأ الحديقة بأسرها.

وكان هناك بلبل آخر قد أخذ يرد– لأول مرّة– على زميله النشيط من نهاية الحديقة.. وحينئذٍ، صمت البلبل القريب وكأنه كان يستمع إليه، ثم عاد إلى التغريد في صوتٍ صداح كان صداه يتردد في الهواء.. وكان صوتهما يترنم في هدوء بالغ وسط عالم الليل الخاص بهما– والذي كنّا فيه كالغرباء! وكان البستاني ذاهبًا في تلك اللحظة إلى غرفته لينام، وكان وقع

حذائه الضخم يدوي في ممرات الحديقة وهو يبتعد رويدًا رويدًا.. وفجأة سمعنا صفيرًا تردد مرتين آتيًا من ناحية الجبل، ثم عاد كل شيء إلى الصمت فلم نعد نسمع حتى حفيف الأشجار.

وهبت نسمة عابرة حملت إلينا مزيدًا من عبير الأزهار.. وكان السكون يحيرني، وكنت لا أدري ماذا أقول. ونظرت إلى سيرج، وكانت عيناه تحدقان في وهما تلمعان في الظلام، فتمتم يقول:

– إن الحياة طيبة حقًا في هذا العالم!

ولست أدري لماذا تنهدت حينما سمعت هذه الكلمات، فعاد سيرج يقول:

– ماذا إذن؟

فرددت عبارته قائلة:

– نعم.. إن الحياة طيبة في هذا العالم.

وساد بيننا الصمت من جديد.. ومرّة أخرى، شعرت بأنني في ضيق، وجال بخاطري أنني آلمته وأنا أوافقه على أنه عجوز، وكنت أريد أن أواسيه ولكنني لم أكن أعرف كيف أفعل ذلك.

وفجأة، نهض سيرج واقفًا وقال:

– ولكن.. وداعًا! إن والدتي تنتظرني للعشاء.. ولم أكد أراها اليوم.

– إنني كنت أود أن أعزف لك "سوناتا" أخرى.

فأجابني قائلًا في برود، أو بدا لي على الأقل أن نبرات صوته كانت كذلك:

– ليكن ذلك في مرّة أخرى.. ثم تقدم خطوة، وقال وهو يأتي بحركة بسيطة:

– وداعًا..

***

وبدا لي حينئذٍ – أكثر من أي وقت آخر– أنني كنت قد آلمته؛ فحزنت لذلك كثيرًا.. ورافقته أنا وماشا حتى أسفل سلم الشرفة، ثم مكثنا في الغناء ننظر ناحية الطريق الذي اختفى فيه. وما كاد يتلاشى وقع سنابك جواده حتى أخذت أتنزه حول الشرفة وأتأمل حديقة البيت. ولبثت طويلًا أتخيل كل ما كانت نزواتي تجعلني أتخيله، وأنا واقفة وسط الضباب الذي كانت تسبح فيه ضوضاء الليل!

وعاد سيرج إلى زيارتنا مرّة ثانية وثالثة، وزالت آخر الأمر تلك الحيرة التي شعرت بها خلال الحديث الغريب الذي كان قد دار بيننا فجأة وعلى غير انتظار، ولم تظهر هذه الحيرة بعد ذلك.

وظل يحضر لرؤيتنا– خلال الصيف – مرّتين أو ثلاث مرّات كل أسبوع، فألفته إلى حد أنه حينما كان يطيل الانقطاع عن الحضور، كان يبدو لي عسيرًا أن أعيش هكذا وحدي.. وكنت أغضب لذلك في قرارة نفسي.

وما لبث سيرج أن أصبح بالنسبة إليّ صديقًا ودودًا، يتقصّى شئوني ويشير في نفسي إجابات صريحة للغاية، ويسدي إليّ النصح ويزجي التشجيع، وينهرني في بعض الأحيان، ويوقفني إذا ما اقتضى الأمر ذلك.

ولكن.. على الرغم من جهوده هذه ليظل في مستواي، كنت أشعر بأن هناك عالمًا بأسره يكمن في شخصه كنت غريبة عنه، وكان لا يرى أن يقحمني فيه. وكان هذا يجعلني– فوق كل شيء– اعتبره أكثر نضجًا مني، ويجذبني إليه في نفس الوقت. وكنت أعرف من ماشا والجيران أنه كان يعاني بعض مضايقات من مشاكل خاصة بالنبلاء.. عدا عنايته بوالدته العجوز التي كان يقيم معها، وعدا أعماله المتعلقة بشئون الزراعة وإشرافه علينا.. ولكني لم أستطع قط أن أصل إلى معرفة موقفه من نفسه ووجهة نظره في هذا الموقف، ولم أستطع كذلك أن أعرف ماذا كانت مشاريعه وآماله. وحينما كنت أحاول أن أوجه الحديث ليدور حول هذه الشئون، كان يقطب جبينه بطريقة خاصة وكأنه كان يريد أن يقول: "كفى! أتوسل إليك.. ماذا يهمك أن تعرفي هذا؟".. ثم يغير مجري الحديث إلى موضوع آخر.

وكان ذلك يصدمني في بادئ الأمر، ولكنني ألفت ذلك إلى حد أننا أصبحنا لا نتحدث أبدًا إلا فيما يخصني، وانتهى بي الأمر بأن وجدت ذلك طبيعيًا جدًا.

***

وشعرت كذلك في البداية بشيء من عدم الرضا، بينما وجدت بعد

ذلك- على العكس- شيئًا من السحر، وأنا ألمس عدم المبالاة التام الذي يكاد يبلغ حد الاحتقار لمظهري الخارجي، ولم أستطع أبدًا أن أفهم من نظراته ولا من كلماته أنه كان يجدني جميلة، بل على العكس.. كان يقطب حاجبيه ويأخذ في الضحك حينما كان يقال أمامه إنني لست دميمة.. بل لقد كان يروق له أن يبين عيوب وجهي، وأن يغيظني عن هذا الطريق..

وكانت الثياب "الموضة" و"تسريحات" الشعر التي كانت ماشا تحب أن تزينني بها أيام العيد تثير سخريته، وكان ذلك يحزن ماشا كثيرًا، كما كان يحيرني تمامًا- في أول الأمر- وكنت على حقٍ في ذلك.

وكانت ماشا قد أيقنت، فيما بينها وبين نفسها، أنني كنت أعجب سيرج ميخايلوفتش، ولكنها لم تستطع أن تفهم لماذا لا يفضل أن تبدو المرأة التي تعجبه في أتم زينتها. ولكنني سرعان ما عرفت ماذا يريد.. إنه كان يريدني بسيطة في كل شيء.. في الملبس، والزينة، وتصفيف الشعر، فحرصت على تحقيق ما يريد.. في الوقت الذي لم أكن أستطيع فيه- أنا نفسي- أن أكون بسيطة مع نفسي.

***

كنت أشعر أنه يحبني.. ولكن، تُرى هل كان يحبني كطفلة أم كامرأة؟ ولم أكن إلى ذلك الوقت قد ألقيت على نفسي هذا السؤال، وكان هذا الحب غاليًا لدي وعزيزًا عليّ.. ولمّا أحسست بأنه كان يعتبرني أحسن فتاة في العالم، صار يحلو لنفسي أن أتمنى أن يستمر هذا الزيف في تعميته.

والحق أنني كنت أخدعه على الرغم مني.. ولكنني كنت وأنا أخدعه أشعر بأني أتطور إلى أحسن، كما كنت أشعر بأن من الأفضل أن أكشف له عن بعض الجوانب الطيبة في نفسي، من أن أكشف له عنها في مظهري.. فشعري، ويداي، ووجهي، ومشيتي- مهما بلغت من جمالٍ أو قبح- فقد استطاع أن يقدرها بنظرة واحدة، وكان يعرف تمامًا أنني- حتى ولو كنت أقصد خداعه- لن أستطيع أن أضيف شيئًا إلى مظهري الخارجي. وكان سيرج، على العكس، لا يعرف حقيقة روحي.. لأنه كان يحبها، ولأن روحي كانت في تلك اللحظة بالذات في أوج نموها وتفتحها.. وأخيرًا؛ لأنه كان من اليسير علي أن أخدعه في مثل هذا المجال، وكنت أخدعه فيه حقًا.

وكم كان شعوري نحوه لطيفًا محببًا حينما فهمت هذا كله حق الفهم! فهذا الاضطراب بلا سبب، وهذه الحاجة إلى الحركة التي كانت تجثم فوق صدري على نحوٍ ما.. كل ذلك قد اختفى تمامًا. وكيفما كانت نظرته إليّ: في وجهي، أو من الجانب، وأنا جالسة، أو واقفة.. وسواء أكان شعري منثورًا أو مصففًا؛ فإنه كان ينظر إليّ دائمًا في سرور، وكان يعرفني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي. وقد قدرت أنه كان مسرورًا مني كما كنت مسرورة منه. وأعتقد أنه لو قال لي فجأة كالآخرين- وعلى غير عادته- إنني أحبك.. فإن ذلك كان خليقًا بأن يفضيني بعض الشيء!

ولكن، على العكس، يا للسرور والصفاء اللذين كنت أشعر بهما في أعماق نفسي حينما كان يسمع كلامًا يخرج من فمي.. فيتأملني في اهتمام، ويقول في انفعال وبلهجة كان يحرص على أن تعجبني:

– نعم، نعم.. إن فيك شيئًا! إنك فتاة طيبة، ومن واجبي أن أقول لك ذلك..

تُرى لماذا كنت أتقبل هذا الإطراء الذي كان يملأ قلبي سرورًا وكبرياء؟ أكان ذلك تارةً لأنني قلت إنني استلطف حب جريجوار العجوز لحفيدته؟ أم تارةً أخرى لأنني انفعلت لحد البكاء لأنني أقرأ شعرًا أو رواية؟ أم لأنني فضلت "موزار" على "شولوف"؟ وكان ذلك الحدس غير المألوف هو الذي يمكنني من أن أخمن ما هو خير ما يحبه سيرج.. كان ذلك الحدس بالنسبة إليّ مثيًرا للدهشة.. ذلك لأنني لم أكن أعرف بعد بطريقة إيجابية ما هو خير، وما يحبه. وكانت أكثر عاداتي السابقة وميولي لا تروق له، وكانت تكفي حركة لا تكاد تلحظ من حاجبيه أو نظرة سريعة منه لأفهم أن ما أريد أن أفعله كان لا يعجبه.. وكان يكفي أن ينمّ وجهه عن الشفقة الممزوجة بالاحتقار لأعتقد على الفور أنني لم أعد أحب ما كنت قد أحببته.. وكنت أستطيع أن أعرف سلفًا ما سيقوله لي، لو أنه جال بخاطره أن يسدي إلى نصيحة، أو يبدي ملاحظة عن أمر من الأمور.

***

لقد كان سيرج إذا أراد أن يسألني عن شيء، وجه إليّ نظرة.. وكانت نظرته تنتزع مني عادة الفكرة التي يريد أن يعرفها. ولم تعد كل أفكاري وقتئذٍ، وكل مشاعري ملكًا لي.. بينما أصبحت أفكاره ومشاعره فجأة هي نفس أفكاري ومشاعري.. ذلك لأنها كانت تنفذ إلى حياتي وتجعلها باسمة مشرقة.

وبطريقة غير محسوسة، بدأت أرى كل الأشياء من حولي، وماشا، وخدمي، وسونيا، ومشاغلي بعينين أخريين.. وبدت لي فجأة تلك الكتب، التي كنت أقرأها لأقتل ما بي من الضيق، أعظم سحر ممتع في الحياة. وذلك لسبب واحد، وهو أننا كنّا نتحدث معًا عن الكتب، وكنا نقرأ معًا كل ما كان يحضره منها إليّ.. وكنت قبل ذلك أنظر إلى عملي مع سونيا وإلى الدروس التي أعطيها لها على أنها واجب مؤلم، كنت أحرص على تأديته بدافع من مجرد الشعور الواجب.. أما الآن، وقد أصبح سيرج يأتي أحيانًا ليحضر معنا هذه الدروس؛ فقد أصبحت أشعر بسرور كبير وأنا أرقب عن كثب ذلك التقدم الذي كانت تسجله شقيقتي.

وكان يبدو لي مستحيلًا فيما مضى، أن أحفظ مقطوعة موسيقية بأكملها.. أما الآن وأنا أعرف أنه سيستمع إليها وقد يصفق لها، فلم أعد أتردد في أن أكرر عزفها أربعين مرّة متتالية، حتى انتهى الأمر بماشا المسكينة أن تضع في أذنيها قطعًا من القطن، في الوقت الذي كنت لا أشعر فيه أنا بأقل ملل أو ضيق.. وأصبحت أناملي تعزف هذه "السوناتا" القديمة بطريقة مختلفة تمامًا، وأفضل بكثير مما كنت أفعل من قبل..

***

وحينئذٍ فقط، أدركت أنه لم يكن هناك ما يضطر ماشا أن تكون لنا بمثابة الأم غير حبها لنا.. والحق أنها كانت لنا أيضًا بمثابة الصديقة التي تحقق جميع نزواتنا.. كما أدركت كل تضحيات هذه المخلوقة الودود،

وتفانيها، ومدى التزاماتي نحوها.. حتى أنني ازددت حبًا لها لهذا السبب. وكان سيرج قد علمني أيضًا أن أرعى خدمنا وفلاحينا ومعاونينا؛ فأصبحت أنظر إليهم جميعًا بمنظارٍ جديد..

والغريب في الأمر أنني كنت أعيش بين هؤلاء جميعًا.. رغم أنني بلغت السابعة عشرة من عمري.. وأنا أحس بأنني غريبة عنهم تمامًا وكأنني أعيش مع أناس لم يسبق لي أن رأيتهم من قبل.. ولم أكن قد فكرت مرّة واحدة أنهم مخلوقات آدمية تشعر مثلي بالحب والرغبة والندم.. وانقلبت تجاه حديقة بيتنا وغاباتنا ومزارعنا، التي كنت أعرفها جيدًا منذ أن ولدت، أشياء جديدة عليّ.. وبدأت أنظر إليها كما لو كنت أراها لأول مرة، وأدرك كل ما فيها من جمال.

وكان سيرج على حق دائمًا حينما كان يقول إنه ليس في الحياة سوى مصدر واحد للسعادة، هو أن يعيش المرء من أجل الآخرين. وكان ذلك يبدو لي غريبًا، وكنت لا أفهمه.. ولكن هذه العقيدة تسللت رويدًا رويدًا إلى أغوار نفسي. وفي كلمة واحدة: فتح سيرج أمامي آفاقًا جديدة لحياة حافلة بالمتع في الحاضر، دون أن يغير شيئًا من حياتي السابقة، أو يضيف إليها شيئًا، إلا أن ينمي في نفسي أحاسيسها الطيبة ومشاعرها النبيلة..

وكان كل شيء من حولي قد ظل منذ طفولتي مطمورًا غامضًا.. وقد بدا لي الآن كأنما كان ينتظر أن أحس بوجوده ليتحدث إلى روحي ويغمرها بالسعادة.

وكثيرًا ما كان يحدث خلال هذا الصيف، أن أصعد إلى غرفتي وأرتمي

على سريري– وهو المكان الذي كانت تراودني فيه هواجسي القديمة المتعلقة بالربيع– وأشعر بأنني ممتلئة برغبات المستقبل وآماله. وكنت أشعر إلى جوار هذا باضطراب آخر كان يحتضنني، مصدره سعادتي الراهنة.. كنت لا أستطيع أن أنام، فأنهض وأجلس على سرير ماشا وأقول لها إنني سعيدة للغاية. وحينما أتذكر ذلك الآن، أجد أنه كان عبثًا أن أقوله لها لأنها كانت تستطيع أن تراه بنفسها.. وكانت ماشا تقول لي أنها هي أيضًا لم يعد لديها ما يقلقها، وأنها كانت سعيدة جدًا.. ثم تقبّلني في حنان.. وكنت أصدقها لأنه كان يبدو لي أن من العدل ومن الضروري أن يكون الكل سعداء، ولكن ماشا كان في وسعها أن تفكر في النوم، وكانت تستطيع حتى أن تتظاهر بالغضب وأن تطردني من سريرها لتنام.. أما أنا فقد كنت– على العكس– أقلب في نفسي لوقت طويل آخر جميع الأسباب والظروف التي تثير في نفسي الشعور بالسعادة.. وكنت أنهض في بعض الأحيان من جديد، وأصلي مرّة أخرى، وأدعو الله من كل قلبي، وأشكره من أعماقي شكرًا جزيلًا على السعادة التي غمرني بها.

***

كان كل شيء في غرفتي هادئًا عدا أنفاس ماشا التي كانت تتردد بانتظام أثناء نومها، ودقات ساعتها الموضوعة إلى جوارها. وكنت أتقلب في فراشي وأنا أتمتم بضع كلمات، وأقبّل الصليب المعلق في رقبتي. وكانت النوافذ والأبواب موصدة.. وكنت أتمنى ألا أبرح هذه الغرفة أبدًا، وألا يشرق الصباح.. وذلك حتى لا يتبدد هذا الجو المشبع بالصفاء والمتعة الروحية.. وكان يبدو لي أن أحلامي وأفكاري وصلواتي ودعواتي

كانت نسمات مشحونة بأرواح تعيش معي، وترفرف حول سريري ومن فوق رأسي.

لقد كانت كل فكرة من أفكاري هي من أفكار سيرج، وكان كل شعوري من شعوره. وكنت لا أدرك بعد ما هو الحب، وكنت أظن أن الحب يمكن أن يكون دائمًا هكذا، وأن مثل هذا الشعور يمنحه المرء بلا مقابل.

الفصل الثالث

وفي أحد أيام موسم حصاد القمح.. ذهبت بعد العشاء مع ماشا وسونيا لنجلس في الحديقة على مقعدنا المفضل تحت ظلال أشجار "التليو" على قمة ربوة، كنا نستطيع من فوقها أن نكتشف الحقول والغابات. وكانت قد أنقضت ثلاثة أيام لم يأت فيها سيرج لزيارتنا، وكنا ننتظره خاصة في ذلك اليوم لأنه وعد "الخولي" بالحضور ليلقي نظرة على المحصول.

وفي نحو الساعة الثانية، لمحناه يمرّ على مرتفع يتوسط حقلًا من حقول الشوفان؛ فابتسمت لي ماشا ابتسامة ذات مغزى، وأمرت بإحضار بعض الخوخ والكرز اللذين كان يحبهما كثيرًا.. ثم تمددت على المقعد واستسلمت لسِنَة من النوم، وانتزعت غصنًا من أغصان "التليو" وأخذت "أهوي" به على ماشا، وأنا أواصل القراءة.. وكنت ألتفت ورائي بين لحظة وأخرى لأراقب الطريق الذي كان لابدّ أن يصل منه. أما سونيا؛ فقد كانت جالسة على جذع شجرة مقطوع تعد لدميتها مهدًا من الخضرة.

كان النهار شديد الحرارة.. وكانت الغيوم تكوّن دائرة في الأفق بعد أن أظلمت في الصباح، وكان الجو ينذر بالعاصفة.. وقد أشاع ذلك في نفسي اضطرابًا شديدًا، كما هي عادتي- على الدوام في مثل هذه

الحالات. ولكن السحب أخذت تتفرق منذ الظهر، وبدأت الشمس تظهر وسط سماء صافية، وصار الرعد لا يزمجر إلا في نقطة واحدة.. ويظهر بريقه في قلب سحابة ثقيلة بعيدة كانت تمتزج بغبار الحقول عند ملتقى السماء بالأرض.. وأصبح من الواضح– بالنسبة إلينا على الأقل– أننا لم نعد نخشى انطلاق العواصف في ذلك اليوم.. وكنا نسمع حينًا، أنينًا بطيئًا طويلًا صادرًا من عربة محملة بالقمح، ونسمع حينًا آخر صوت هزات عربات الركاب التي كانت تلتقي ثم تفترق، وخطوات الحمالين والسائقين وهم يسرعون إلى جوار مركباتهم وقد تطايرت ذيول قمصانهم في الهواء.. كنا نسمع ذلك ونراه في هذا الجزء من الطريق الذي كنّا نستطيع أن نتبينه من مكاننا فوق الربوة. وكان الغبار الكثيف لا يتطاير ولا يسقط على الأرض، ولكنه يظل عالقًا بأسوار الحديقة المعشبة وبأوراق الشجر الشفافة. وبعيدًا بعض الشيء، عند مخزن الغلال، كانت تنبعث أصوات عربات أخرى.. وهنالك، كانت حزم القمح الذهبية تكدس إلى جوار أرض فضاء مُسوّرة.. وسرعان ما لمحت عيناي أكوامًا هرمية تحوم حولها هامات الفلاحين.

وكان الحر والغبار يغمران كل مكان إلا ركننا الصغير المفضل في الحديقة. ومع ذلك، كان حشد من العمال يروح ويغدو هنا وهناك، وهو يثرثر ويمزح وسط هذا الطقس الخانق تحت نار الشمس المحرقة. وأخذت أتأمل ماشا وهي نائمة في رفق على مقعدنا الرطب، وهي تحتمي بمنديلها القطني الأبيض، والكرز الأسود اللذيذ الموضوع في الطبق، وثيابنا الخفيفة النظيفة للغاية. وكان شعاع الشمس عكس ويتموج في ماء الدورق..

وكنت أشعر وقتئذٍ بسعادة غريبة. ورحتُ أفكر: ماذا ينبغي أن أفعل؟ تُرى هل أنا مذنبة أن أشعر بأنني سعيدة هكذا؟ ولكن كيف، ولن أكرس نفسي وسعادتي؟

***

كانت الشمس قد توارت خلف قمم أشجار البلوط الشامخة في الحديقة؛ وانخفض الغبار واستقر أكثره على الأرض.. وأصبحنا في تلك اللحظة نلمح من بعيد مناظر الطبيعة، وقد ازدادت وضوحًا وإشراقًا تحت أشعة الشمس المائلة.. وكانت السحب قد انقشعت تمامًا وكنت أرى فيما وراء الأشجار العالية أكوامًا أخرى من حزم القمح إلى جوار مخزن الغلال، ينزل الفلاحون من فوقها.

ولآخر مرّة في ذلك اليوم، مرت العربات مسرعة، وقد أخذت الأجراس المعلقة في رقاب خيولها تجلجل مُحدثة موسيقى صاخبة كان صداها يتردد في الهواء.. وكان غناء القرويات يتردد ممتزجًا برنين هذه الأجراس، وهن عائدات إلى بيوتهن تحمل كل واحدة "شوكة" فوق كتفها، وقد شدت حزامًا إلى وسطها. ولم يحضر سيرج على الرغم من إنني لمحته مرة أخرى منذ لحظات طويلة عند سفح الجبل.. وفجأة، ظهر في آخر ممر الحديقة من الناحية التي لم أكن أتوقع حضوره منها قط؛ لأنه دار حول المرتفع الذي كنا نجلس فوقه.

وتقدم نحوي سيرج وقد رفع قبعته، فبدا لي وجهه المشرق الصبوح. ولما وقعت عيناه على ماشا التي كانت لا تزال نائمة، عضّ شفّته وغمز

بعينه.. ثم مشى على أطراف أصابعه؛ فأدركت على الفور أنه كان في إحدى لحظات انشراحه ومرحه دون سبب ظاهر، وهي لحظات كنت أحبه فيها كثيرًا، وكنّا نسميها فيما بيننا: الانطلاق الفطري. وبدا لي سيرج في تلك اللحظة كأنه تلميذ هارب من فصله، وكان السرور والمرح يشعان من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

وأقترب مني، ثم صافحني قائلًا بصوت منخفض:

– طاب يومك أيتها "البنفسجة الصغيرة".. كيف الحال؟ حسنًا!

فلم أجب، ولكني وجهت إليه نفس هذا السؤال.. فأجاب قائلًا:

– وإنني في خير حال، وأشعر اليوم بأنني في الثالثة عشرة من عمري.. أود أن ألعب بجوادٍ من الخشب، وأن أتسلق الأشجار!

فقلت له وأنا أنظر في عينيه الباسمتين، وأشعر بأن هذا "الانطلاق الفطري" كان يغزوني أنا أيضًا:

– إنه "الانطلاق الفطري"..

فتمتم قائلًا وهو يغمز لي ثانية بعينه، ويكتم ابتسامة على شفتيه:

– نعم.. ولكن لماذا تريدين إذن أن توقظي ماشا كارلوفنا المسكينة؟

والواقع أنني لم أكن قد لاحظت أنني كنت– وأنا أنظر إليه– أضرب بالغصن الذي كان في يدي منديل المربية، وأمُس به وجهها، دون أن أشعر، فانفجرت ضاحكة..

وقلت له في همس، وكأنني أحرص على ألا أوقظ ماشا:

– لا شك في أنها ستقول إنها لم تنم!

ولكنني – في الواقع– لم أكن أهمس لهذا السبب، وإنما كنت أجد من المستحب أن أكلمه هكذا.

وكان سيرج من جانبه يحرك شفتيه ويقلدني، وكأنما كان هو أيضًا يقول لي بصوت منخفض شيئًا يجب ألا يسمعه أحد.. ثم ألمحُ طبق الكرز وتظاهر بأنه يستولي عليه خلسة، ثم انطلق إلى سونيا ليجلس مكان الدمية تحت شجرة "التليو". وأوشكت شقيقتي أن تغضب لولا أنه صالحها بسرعة عن طريق تنظيم لعبة راحا يلعبانها معًا، وهي سباق في التهام الكرز!

وقلت له وأنا أبتسم:

– أتريد أن آمر بإحضار كمية أخرى من الكرز؟ أم نذهب نحن لنحضره؟

فتناول الطبق ووضع فيه الدُّمى، وقال إنه من الأفضل أن نذهب نحن لإحضاره.

***

وذهبنا ثلاثتنا إلى أشجار الكرز، بينما كانت سونيا تضحك وهي تعدو خلفه وتجذبه من ذيل معطفه كي يعيد إليها الدُّمى، فأعادها إليها ثم التفت إليّ؛ وقال لي في صوت خفيض بالرغم من أنه لم يكن هناك أحد نخشى أن نوقظه:

– لماذا لا توافقين عليّ إنك "بنفسجة"؟ حينما اقتربت منك بعد ما تحديت كل هذا الغبار والحر والتعب، خُيل إليّ أنني أشمّ رائحة البنفسج.. والحق أنه لم يكن هذا البنفسج ذا الرائحة القوية، بل البنفسج الذي ينمو –كما تعرفين– وتكون "أول قطفة" منه لا تزال متواضعة، وتنبثق منها رائحة هي مزيج من الجليد الذي يتلاشى وعشب الربيع.

فقلت له على الفور لأخفي ما أثارته كلماته في نفسي من سرور واضطراب:

– ولكن قل لي.. هل المحصول على ما يرام؟

– إنه مُدهش! إن هؤلاء الفلاحين قوم ممتازون في كل مكان، وكلما ازددنا معرفة بهم تضاعف حبنا لهم..

– آه، نعم.. فقبل وصولك بلحظة قصيرة، كنت أرقب العمل من المكان الذي كنت جالسة فيه، فأدركت مدى ما يبذلونه من جهد في الوقت الذي كنت أنعم فيه بقدر كبير من الراحة و ..

فقاطعني قائلًا، وهو يُلقي علي نظرة مداعبة:

– لا تلعبي بالمشاعر يا كاتيا..فعملهم شيء مقدس، وليحفظك الله من الادعاء في مثل هذه الأمور!

– ومن أجل هذا فإنني لا أقول ذلك إلا لك وحدك.

– أعرف ذلك.. حسنًا! وأين الكرز؟

***

كانت أشجار الكرز محاطة بسور له باب مغلق.. ولم يكن هناك بستاني واحد؛ إذ أن سيرج كان قد أرسلهم جميعًا للعمل. وجرت سونيا لتحضر المفتاح، ولكن سيرج لم ينتظر عودتها، وتسلق السور من أحد أركانه بعد أن تعلق ببعض الشباك، وقفز إلى الناحية الأخرى.. وقال لي من هناك:

– هل لك أن تعطيني الطبق؟

– كلا.. أريد أن أجمع الكرز بنفسي، وسأذهب لأحضر المفتاح لأن سونيا لم تجده بلا شك.

ولكنني، في نفس الوقت، تملكتني نزوة بأن أفاجئه لأرى ماذا كان يفعل هناك، وماذا كان ينظر إليه، وماذا كانت هيأته.. وباختصار: لأراه في الوقت الذي يعتقد فيه أن أحدًا لا يراه.. أو لعل ذلك يرجع– بكل بساطة– إلى أنني كنت أريد ألا أضيع في تلك اللحظة دقيقة واحدة من متعة النظر إليه.. فمشيت فوق الشوك على أطراف أصابعي ودرت حول السور، ثم ذهبت إلى الناحية الأخرى حيث السور أقل ارتفاعًا، ووقفت فوق وعاء مقلوب بحيث أصبح صدري في مستوى السور، وانحنيت إلى الداخل أبحث بعيني لأنظر ما يشمله هذا المكان.

كانت أشجار الكرز القديمة منحنية للغاية، وتتدلى منها عناقيد من الكرز المسود اللذيذ.. فأخفيت رأسي تحت الشباك، ولمحتُ سيرج بين أغصان كثيفة ملتوية في كرزة عجوز.. ولا شك في أنه كان يعتقد أنني رحلت، وأن أحدا كان لا يراه..

***

كان سيرج جالسًا على حطام كرزة عجوز حاسر الرأس، وقد أغمض عينيه، وراح يداعب بإهمال بين أصابعه قطعة صغيرة من صمغ الكرز.. وفجأة، فتح عينيه وتمتم يقول شيئًا وهو يبتسم وكانت ابتسامته وكلماته التي تمتم بها لا تشبه إلا قليلًا مما كنت أعرفه عنه، حتى أنني خجلت لتجسسي عليه. وقد بدا لي أن ما همّ به كان هذه الكلمات: "كاتيا.. هذا غير ممكن!" ثم كرر هامسًا في مزيد من الحنان: عزيزتي كاتيا!".. ولكني في هذه المرة سمعت هاتين الكلمتين في وضوح تام.. فخفق قلبي في عنف، وشعرت بموجة من المرح تغمر نفسي، وأخذت إلى حد كبير.. حتى أنني اضطررت إلى التشبث بالسور لأمنع نفسي من السقوط، وحتى لا ينفضح أمري!

وسمع سيرج حركتي، فالتفت وراءه في شيء من الفزع.. ثم غضّ بصره فجأة وقد أحمرت وجنتاه كأنه طفل صغير، وأراد أن يقول لي شيئًا فلم يستطع، وازداد احمرار وجهه.. ومع ذلك، فقد ابتسم وهو ينظر إليّ.. فابتسمت له كذلك، وقد لاحظت أن ملامحه كانت تنطق بالسعادة. كلا، كلا.. إن سيرج لم يعد إذن ذلك العم العجوز الذي كان يفرقني في المداعبة والتوجيه، وإنما كنت أرى أمام عيني رجلًا في نفس مستواي.. رجلًا يحبني ويخشاني، وكنت أنا نفسي أخشاه وأحبه!

وانقضت لحظات، لم يقل أحدنا خلالها شيئًا للآخر، ولم يقنع بأن يبادله النظرات.. وفجأة، قطب سيرج حاجبيه.. وانطفأ لهيب نظرته في نفس اللحظة التي تلاشت فيها ابتسامته. وسرعان ما عاد إلى موقفه الأبوي البارد حيالي، كما لو كنّا قد فعلنا شيئًا منكرًا، وكما لو كان قد

ثاب إلى رشده ونصحني بأن أحذو حذوه!

وقال لي:

– انزلي من هنا حتى لا تصابِ بأذى.. وصففي شعرك، ثم أنظري ماذا تشبهين؟

فقلت في نفسي وقد تملكني الغضب: "تُرى لماذا يخفي شعوره هكذا؟ ولماذا يريد أن يؤلمني؟".

وتملكتني في تلك اللحظة رغبة عارمة في أن أضاعف اضطرابه، وأن أجرب قوة إغرائي عليه، فتعلقت بيدي في غصن شجرة مجاورة ثم قفزت إلى الناحية الأخرى من السور وأنا أقول له:

– كلا.. أريد أن أقطف الكرز بنفسي..

وقبل أن يتمكن من معاونتي، قفزت إلى الأرض بين أشجار الكرز.. فأحمر وجهه من جديد، وصاح قائلًا وهو يحاول أن يخفي اضطرابه تحت ستار من الغضب:

– أية حماقة هذه التي ترتكبينها هنا!

– كان من الممكن أن يصيبك أذى.. والآن، أريني كيف تستطيعين الخروج من هذا المكان؟

وبلغ اضطراب سيرج في تلك اللحظة أضعاف ما اعتراه من قبل، ولكن اضطرابه هذا صار لا يفرحني، بل يثير خوفي.. ذلك لأنني كنت بدوري مضطربة تعلو وجنتي حمرة الخجل.. فابتعدت عنه وأنا لا

أعرف ماذا أقول، وأخذت أجمع الكرز ولا أدري أين أضعه. ورحت ألوم نفسي وأعضّ بنان الندم، وقد استبد بي الخوف.. وكان يبدو لي في تلك اللحظة أنني بتصرفي هذا قد فقدت مكانتي في قلبه إلى الأبد.

ولبثنا هكذا نحن الاثنين بلا حديث، وكان الصمت ثقيلًا علينا.. وأقبلت سونيا تجرى وبيدها مفتاح الباب؛ فأخرجنا ظهورها المفاجئ من هذا الموقف المرّبك. ومع ذلك، فقد استمر بيننا الصمت.. وكل منّيا يفضل أن يتحدث إلى شقيقتي.

وهدأت نفسًا لما عدنا إلى ماشا من جديد، وأقسمت لنا هذه أنها لم تنم، وأنها سمعت كل شيء. وحاول سيرج مرة أخرى أن يعود إلى موقفه كأب يحميني، ولكن محاولته هذه باءت بالفشل ولم تستطع أن تخدعني. وكان هناك حديث معين كان قد جرى بيننا منذ يومين، وكان لا يزال حيًا في ذاكرتي..

كانت ماشا قد تطوعت برأي من عندها، فقالت في جد واهتمام:

– إن الرجل يقع في شباك الحب بسهولة أكثر من المرأة، ومن اليسير عليه أن يعبر لها عن حبه..

وصمتت ماشا لحظة ثم لخصت رأيها قائلة: "يستطيع الرجل أن يقول إنه يحب، ولكن المرأة لا تستطيع أن تفعل ذلك".

فرد عليها سيرج قائلًا:

– يبدو لي أن الرجل لا يستطيع، ولا ينبغي له أن يقول إنه، فسألته

قائلة:

– لماذا؟

– لأن ذلك سيكون كذبًا على الدوام.. وبعد، فما معنى أن يكتشف الرجل أنه يحب؟ أهو حدوث شيء غير عادي لمجرد أن ينطق بهذه الكلمة؟ شيء غير عادي أو ظاهرة أيًا كانت تحدث هكذا فجأة ودفعة واحدة؟ يبدو لي أن هؤلاء الناس الذين يقولون لك بطريقة رسمية: "أحبك".. إما أنهم يخدعون أنفسهم، أو ما هو أسوأ من ذلك: يخدعون الآخرين!

فقالت ماشا تسأله:

– وهكذا، حسب رأيك، تعرف المرأة أن الرجل يحبها حينما لا يقول لها أنه يحبها!

– هذا شيء لا أعرفه، ولكل رجل طريقته في الكلام.. ولكن ثمة مشاعر تفرض فهمها بنفسها.. فحينما أقرأ روايةً ما؛ فإنني أحاول دائمًا أن أتصور منظر الملازم "كريلسكي" أو "الفريد" وهما يقولان: "أحبك يا الينورا.." ويظنان أنه سيحدث فجأة شيء غريب، في حين لا يحدث شيء على الإطلاق لا في نفسها ولا في نفسه.. فوجهاهما، ونظراتهما، وكل شيء فيهما يظل دائمًا كما هو!

وفهمت من خلال هذا المزاح أن وراءه معنى جديًا، وإن هذا المعنى قد يتعلق بي.. وكانت ماشا لا تسمح– بسهولة– بأن يطول الحديث عن

أبطال الروايات، فصاحت في سيرج قائلة:

– إنـك تلقـي دائمًـا بآراء تعـارض بهـا آراء الآخـرين، هيـا.. وكن صريحًا: ألم تقل أنت نفسك أبدًا لامرأة إنك تحبها؟

فأجابها سيرج قائلًا وهو يضحك:

– إنني لم أقل ذلك أبدًا، ولم أثنِ ركبتي أمام أحد قط.. ولن أقوله لأحد.

***

تذكرت حينئذٍ هذا الحديث الذي جرى بيننا منذ يومين، فقلت في نفسي: "نعم.. إنه ليس بحاجة إلى أن يقول لي أنه يحبني، فهو يحبني، وأنا أعرف ذلك، ولن تستطيع كل الجهود التي يبذلها ليبدو أمامي بمظهر عدم الاكتراث، أن تنتزع من نفسي اعتقادي الراسخ بأنه يحبني..

ولم يتحدث إليّ سيرج طيلة هذه السهرة إلا قليلًا جدًا، ولكنني كنت أشعر بحبه في كل كلمة من كلماته، وكل حركة من حركاته، وكل نظرة من نظراته، وكنت لا أشك أبدًا في ذلك.. والشيء الوحيد الذي كان يغيظني منه ويبعث الحزن في نفسي أنه كان لا يزال يحرص على أن يخفي حبه عني ويدعي البرود، بينما كان كل شيء قد أصبح واضحًا تمامًا بحيث كنا نستطيع في كثير من السهولة والبساطة أن نكون سعداء أكثر مما يتسنى لغيرنا من الناس. ولكنني من ناحية أخرى كنت أتعذب، وكأنني ارتكبت جرمًا؛ لأنني قفزت فوق سور البستان ولحقت به بين أشجار الكرز.. وكان يبدو لي وقتئذٍ أنه كفّ عن تقديره لي، وأصبح يشعر نحوي بشيء من الجفاء.

وجلست إلى البيانو بعد تناول الشاي، فلحق بي سيرج في الصالون وقال:

– اعزفي لنا شيئًا يا كاتيا.. فحدقت في عينيه نجاة، وقلت له:

– هل أنت غاضب مني يا سيرج؟

– لماذا؟ فأجبته وقد اندفع الدم غزيرًا إلى وجنتي من شدة الخجل:

– لأنني لم أطعك بعد ظهر اليوم..

ففهم ما كان يجول بخاطري، وهز رأسه وابتسم.. وأدركت من ابتسامته أنه كان يريد أن ينهرني قليلًا، ولكنه لم يعد يستطيع أن يفعل ذلك..

وقلت له وأنا أتخذ مكاني أمام البيانو:

– لقد انتهينا من هذا الموضوع. وأصبحنا مرّة أخرى على وفاق.. أليس كذلك؟

– بلا أعتقد ذلك..

ولم يكن في هذا الصالون الكبير ذي السقف المرتفع سوى شمعتين فوق البيانو.. أما بقية الغرفة فكانت غارقة في شبه ظلام.. ومن خلال النوافذ المفتوحة، كنا نتأمل مناظر ليالي الصيف المقمرة، وكاد يسود المكان سكون شامل لم يكن يعكر صفوه بين حين وآخر إلا وقع أقدام ماشا في الصالون، وصوت سنابك جواد سيرج المشدود إلى النافذة، وهو يضرب الأرض ويحطم بعض الأعشاب..

***

وجلس سيرج خلفي بحيث لم أكن أستطيع أن أراه، ولكن نظراته

وحركاته التي لم يكن في استطاعتي أن أميزها، كانت تنفذ إلى أعماق نفسي فتحدث دويًا في قلبي..

وجرت أناملي على البيانو تعزف المقطوعة التي كان قد أحضرها إليّ، فحفظتها أمامه ومن أجله.. وكنت لا أفكر أبدًا فيما كنت أعزفه، ولكن كان يبدو لي إنني أجيد عزفه، وإن هذا العزف يعجبه.. وكنت أقاسمه المتعة التي كان يشعر بها، وأدرك دون أن أراه أن نظراته من مكانه كانت مثبتة عليّ..

وبينما كانت أناملي تمس مفاتيح البيانو– دون أن أعي ماكنت أفعله– بدرت مني حركة لا إرادية.. فقد نظرت إليه، وكان رأسه ظاهرًا بوضوح في ظلام الليل..

كان سيرج جالسًا يتأملني بإمعان، وقد أسند جبينه إلى راحة يده ولمعت عيناه ببريق شديد، فابتسمت وأنا أفاجئه بالتطلع إليه.. وتوقفت عن العزف.. فابتسم هو الآخر، ومال برأسه على "النوتة" بصورة فهمت منها أنه يلومني ويطلب مني أن أتابع العزف.

وحينما انتهيت من العزف، كان القمر في كبد السماء، وأخذ ضوؤه الفضي يتسلل من خلال النوافذ، ويمتزج بضوء الشمعتين الخافت لينعكس على "الأرضية" الخشبية المصقولة.

وقالت ماشا:

– إنك تصرفت تصرفًا سيئًا وتوقفت عن العزف في أجمل موضع، وأرى إنك لم تحسني العزف!

فاحتج سيرج قائلًا:

– بل على العكس.. إنها لم تنجح يومًا في العزف كما نجحت اليوم..

ونهض من مقعده، وأخذ يذرع أرض الصالون المعتم والردهة جيئة وذهابًا، وهو ينظر إليّ مبتسمًا.. فكنت أبادله الابتسام.. وكنت أرغب في الضحك– دون أي سبب– لفرط سعادتي بما حدث في ذلك اليوم وفي تلك اللحظة التي كنا فيها.

***

وبينما كان الباب يحجب عني سيرج لحظة، قفزت إلى رقبة ماشا وأخذت أقبلها في موضعي المفضل على رقبتها السمينة وأسفل ذقنها.. وحين ظهر ثانية، أعدت لوجهي مظهره الجاد، وكتمت ضحكة كادت أن تفلت من بين شفتي!

وسألته ماشا قائلة:

– ماذا جرى لها اليوم؟

ولم يجب سيرج، بل اكتفى بأن تندر عليّ.. وكان يعرف جيدًا ماذا كان يحدث لي؟

ووقف سيرج أمام باب الشرفة التي تطل على الحديقة ثم قال:

– هيا.. احضرا إلى هنا لتشاهدا جمال هذه الليلة! فلحقنا به هناك.. وكانت حقًا ليلة لم أرَ مثلها بعد ذلك.

كان القمر بدرًا يسطع خلفنا من فوق البيت.. وكان سقف البيت وأعمدة الشرفة تعكس ظلالًا قصيرة تنحدر بميل إلى ممر الحديقة المفروش بالرمل، وعلى حوض العشب ذي الشكل البيضاوي.. وكانت كل نباتات الحديقة تتلألأ في الضوء، وقد غطتها طبقة فضية من الندي بفعل ضوء القمر.. وكان هناك طريق عريض تحف به الأزهار من الجانبين، وتقطعه ظلال أشجار الورد التي تسندها العصى.

وكان هذا الطريق المضيء النضر يمتد تحت الضباب، وكان يتلألأ فيه حصى مدبب.. وكان سقف حوض البرتقال المغلق يسطع من وراء أعالي الأشجار، وكان الضباب يتصاعد من خلف ربوة الحديقة وهو يزداد كثافة لحظة بعد أخرى.. وأصبحت الأزهار رطبة بتأثير الندى، بحيث أصبح من المستطاع أن يميزها المرء الواحدة عن الأخرى. وكان الضوء يمتزج بالظل في ممرات الحديقة بحيث أن الأشجار والممرات كانت تبدو كأنها مبانٍ شفافة تهتز وتتموج من جراء ذبذبة حنون!

وفي ظل البيت ناحية اليمين، كان كل شيء معتمًا لا يمكن تمييزه، ويكاد يثير الرعب في النفوس.. ولكن قمم أشجار البلوط ذات الشكل العجيب كانت تلمع فيما وراء ذلك، مثيرة في النفس شعورًا غريبًا وهي تنشر إلى جوار البيت وفرقه هالة من الضوء الواضح، بدلًا من أن تتلاشى في أجواز هذا الفضاء ذي الزرقة المعتمة..

وقلت فجأة:

– هيا بنا نتنزه..

فوافقـت ماشـا.. ولكنهـا أضـافت قائلـة إن علـيّ أن أنتعـل حذاء خشبيًا حتى لا أنزلق على الأرض الرطبة فقلت لها:

– ليس هذا ضروريًا.. فسيعطيني سيرج ذراعه..

قلت لها ذلك، وكأنما سيمنعني ذراع سيرج من أن تبتل قدماي! ولكن مثل هذا العمل الجنوني كان يعتبر في تلك اللحظة أمرًا مقبولًا لا يثير الدهشة في نفس كل منا نحن الثلاثة.

ولم يكن سيرج قد أعطاني ذراعه من قبل– وأنا أسير معه– وهأنذا الآن قد أخذته بنفسي، فلم يبد عليه أي أثر للدهشة.

ونزلنا نحن الثلاثة سلم الشرفة المؤدي إلى الحديقة.. وكان كل هذا العالم، وهذه السماء، وهذه الحديقة، وهذا الهواء الذي كنا نستنشقه.. كل هذا لم يعد يبدو في نظري كما عرفته من قبل!

وحينما نظرت أمامي في ممر الحديقة الذي كنا نهم بالسير فيه، دار بخاطري أننا لن نستطيع أن نذهب أبعد من ذلك، وإن العالم ينتهي هنا، وإن كل شيء من حولي يجب أن يظل ثابتًا على جموده دون تغيير في جماله الحالي.

ومع ذلك، فكلما تقدمنا في السير، كان هذا الجدار المسحور المصنوع من الجمال الخالص يتراجع أمامنا ليفسح لنا الطريق.. وكنت حينئذٍ أجد نفسي مرة ثانية وسط أشياء مألوفة: الحديقة، والممرات، والأشجار، وأوراقها الجافة.. وكنا نعبر– أثناء سيرنا في هذه الممرات– دوائر مضيئة تتلوها أخرى مظلمة. وكانت أوراق الأشجار الجافة تتهشم

تحت أقدامنا، وأغصان الأشجار الحنون ترتطم بوجهي..

***

وكان سيرج يمشي إلى جواري بخطوات بطيئة منتظمة– في تحفظ وحذر– تاركًا ذراعي يستند إلى ذراعه.. وكان القمر يطل علينا من السماء، ويضيء وجوهنا من خلال أغصان الشجر..

وتأملت سيرج لحظة، ولم يكن هناك ولا شجرة واحدة في ذلك الجزء من الممر الذي كنا نجتازه في تلك اللحظة، فبدا لي وجهه واضحًا في ضوء القمر.. كان جميلًا جدًا، وتنطق ملامحه بفيض من السعادة..

وكان يقول لي:

– هل أنت خائفة ؟

فكان صدى هذه الكلمات يتردد في نفسي، وكأنه يقول لي:

"أحبكِ يا صغيرتي العزيزة! أحبكِ! أحبكِ!"..

وكانت نظرته تؤكد حبه لي.. وكذلك ذراعه، وضوء القمر، والظل، والهواء، وكل شيءٍ من حولنا..

وطفنا هكذا بكل أرجاء الحديقة، وماشا تسير إلى جوارنا بخطوات صغيرة متوثبة، وقد بدا أنها تتنفس بجهد لما تلاقيه من عناء وتعب، وقالت لنا آخر الأمر:

– يجب الآن أن نعود؟

وكنت أتألم كثيرًا من أجلها.. أتألم كثيرًا من أجل هذه المخلوقة المسكينة.. وقلت في نفسي: "لماذا لا يكون شعور ماشا كشعورنا؟ ولماذا لا يكون المرء شابًا وسعيدًا على الدوام؟ لشد ما ينبثق الشباب من خلال ليلتنا هذه!

وعدنا إلى البيت، ولكن سيرج أطال البقاء معي بعد ذلك، ونسيت ماشا أن تذكرنا بأن الوقت كان متأخرًا، ودار الحديث بيننا عن أمور تافهة، ونحن نجلس جنبًا إلى جنب، فلم نشعر بأنفسنا حتى كانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحًا!

ورحل سيرج مع مطلع الفجر، بعد أن استأذن منّا كما كان يفعل من قبل، ولكنني كنت أعرف منذ ذلك اليوم أنه صار ملكًا لي دون شك، وإنني لن أستطيع أن أبتعد عنه..

***

وحينما أيقنت إنني كنت أحبه، قصصت كل شيء على ماشا.. فسرها ذلك وتأثرت به، ولكن هذه المرأة المسكينة لم تستطع أن تنام طيلة هذه الليلة.. أما أنا؛ فقد لبثت فترة طويلة أتمشى بعد ذلك في الشرفة، وأطوف بأرجاء الحديقة، وأنا أحاول أن أتذكر كل كلمة وكل شيء حدث بيننا.. ومرة أخرى، أخذت أجوب ممرات الحديقة التي شاهدت نزهتنا الليلة معًا.

ولم يزر النوم جفني في تلك الليلة.. ولأول مرة في حياتي شاهدت شروق الشمس وعرفت ما هو الفجر، ورحت أسائل نفسي: لماذا لا

يقول لي ببساطة أنه يحبني؟ ولماذا يختلق الصعوبات ؟ ولماذا يزعم أنه عجوز بينما كل شيء بسيط جدًا وجميل للغاية؟

لماذا نضيع هكذا وقتًا ثمينا قد لا يعود أبدًا؟ فليقل إذن أنه يحبني.. ليقل ذلك في ألفاظ صريحة، وليأخذ يدي في يده، ويميل برأسه علي، ويقول: أحبك! ليخفض عينيه إذن، ويحمر وجهه أمامي من الخجل، وسأقول له حينئذٍ كل شيء.. أو ربما من الأفضل ألا أقول له شيئًا، بل أحتضنه بين ذراعي وأجهش بالبكاء.. ولكن، تُرى ماذا يحدث لو إنني كنت مخطئة وكان لا يحبني؟

جالت هذه الفكرة فجأة بخاطري، فتملكني الذعر لهذا الشعور.. ويعلم الله إلى أين كان يمكن أن يؤدي بي هذا الشعور.. والواقع أن صدى خجلنا واضطرابنا حين قفزت ولحقت به بين أشجار الكرز، كان ثقيلًا على نفسي ويقبض قلبي!

وامتلأت عيناي بالدموع وأخذت أصلي.. وقد راودتني في تلك اللحظة فكرة غريبة للغاية، أحيت الأمل في نفسي، وأشاعت في قلبي الهدوء.. فقد قررت أن أبدأ فترة من التقشف والزهد، وأن أختار يوم عيد ميلادي لأصبح خطيبة لسيرج.

ولم أكن أدري كيف ولماذا كان يمكن أن يتحقق ذلك؟ ولكنني اعتقدت في نفسي تلك اللحظة أن الأمور ستسير على هذا النحو..

ولما عدت إلى غرفتي كان النهار قد أشرق تمامًا، واستيقظ كل من في البيت.

الفصل الرابع

كنا في وقت صيام المسيحيين الأرثوذكس.. ولهذا لم يفاجأ أحد بالبيت بمشروع الزهد والتقشف الذي قررت تنفيذه.. ولم يأتِ سيرج ليرانا طيلة أسبوع بأكمله.. ولم يدهشني ذلك منه، ولم يغضبني أو يقلقني، لفرط سروري من أنه لم يحضر.. إذ كنت لا أنتظره إلا في يوم عيد ميلادي..

وفي كل يوم من أيام هذا الأسبوع، كنت أستيقظ مبكرة في اللحظة التي يتأهب فيها الفلاحون لاستئناف أعمال اليوم.. ثم أتنزه وحدي في أرجاء الحديقة وأنا أفكر في الماضي، وفيما كان يجب على أن أفعل حتى أجد نفسي راضية مسرورة في المساء بعد قضاء يوم لم أرتكب فيه الخطايا.

وخلال النهار، كانت الخيول تشد إلى العربة لأنطلق بها مع ماشا وخادمة أخرى إلى الكنيسة التي تقع على مسيرة ثلاثة فراسخ من بيتنا. وفي كل مرة كنت أدخل فيها الكنيسة، كنت أتذكر أن المرء وهو بداخلها يدعو الله من أجل كل هؤلاء الذين يدخلونها وقلوبهم عامرة بخشية الله.. وكنت شديدة الحرص على أن أرتفع إلى مستوى هذه الفكرة، خاصة في اللحظة التي كنت أرتقي فيها سلم الكنيسة الذي يكسوه العشب، وهي اللحظة التي لم يكن يوجد بالكنيسة خلالها إلا نحو

عشرة من الفلاحين والزهاد الذين جاءوا – مثلي– يتأهبون للعبادة في فترة الصوم والتقشف هذه.. كما كنت أعني كل العناية بأن أرد على تحيتهم في تواضع وشغف.. وكنت أقترب بنفسي من الدرج الذي تودع فيه الشموع– وكان ذلك يعتبر في نظري عملًا مجيدًا– فيناولني جندي عجوز كان يعمل خادمًا كنيسة بعض الشموع، فأذهب بعد ذلك وأضعها في خشوع أمام الصور المقدسة.

***

وحينما كنت أقترب من باب المكان المقدس، كنت أستطيع أن ألمع "المفرش"– الذي كانت والدتي قد صنعته بيديها– موضوعًا فوق المذبح وعليه صور دينية، وأخرى لملائكة تحف بها النجوم، وحمامة حولها هالة من الذهب..

وكان هذا "المفرش" يبدو لي كبيرًا جدًا أيام طفولتي، كما كانت هذه الحمامة تستلفت نظري بوجه خاص.. وكنت ألمح فيما وراء المكان الذي ترتل فيه التراتيل ذلك الحوض، الذي طالما أمسكت فيه أطفال الفلاحين في مزرعتنا ليعمدهم القسيس، والذي كنت أنا قد عمدت فيه. وكان القسيس العجوز يبدو مهيبًا مؤثرًا، وقد ارتدى عباءته المصنوعة من قماش كان يومها يغطي نعش والدي.. ثم يأخذ في ترتيل الطقوس بنفس الصوت الذي كان يرتل به القس في بيتنا وأنا طفلة صغيرة، وأثناء تعميد شقيقتي سونيا، وخلال إقامة الشعائر الجنائزية على جثمان والدي ثم والدتي..

وكنت أسمع صوتًا متكسرًا ومألوفًا لدي يتصاعد من بين المرتلين، وكان ذلك صوت القسيس الذي يشرف على إنشاد الترتيل.. وكنت أرى في كل مرة عجوزًا محدودبة الظهر كانت تحرص على حضور كل الطقوس، وقد استندت إلى الجدار وأمسكت بين يديها المضمومتين بمنديل باهت اللون.. وراحت تتأمل إحدى الصور الدينية بعينين تفيضان بالدموع، وتتمتم بصلوات غامضة كانت تنساب متتابعة من فمها الخالي من الأسنان.

ولم يكن الفضول وحده- أو مجرد الذكريات- هي التي تقرب إلى نفسي كل هذه الأشياء وهذه المخلوقات، بل كانت هذه جميعًا تبدو في نظري كبيرة مقدسة حافلة بالمعاني العميقة..

وكنت أعير أذنًا واعية لكل كلمة من العظات والصلوات التي أستمع إليها، محاولة جهد طاقتي أن أجعل شعوري يتفق ومغزى هذه الكلمات.. وأطلب إلى الله أن ينير بصيرتي حينما كنت لا فهم بعض معانيها، أو أبدل مالم أكن أسمعه منها جيدًا بصلوات من عندي..

وفي اللحظة التي كانت تُتلى فيها صلوات الغفران، كانت ذكريات الماضي تطفو في نفسي.. وكان ماضي طفولتي البريئة يبدو في نظري حالك السواد بالقياس إلى حالة الصفاء، التي كانت تنعم بها نفسي في تلك اللحظة.. فكنت أبكي على نفسي، ولكنني كنت أشعر في نفس الوقت بأن ذنوبي جميعًا قد غفرت لي.. وحتى لو أنه كان لا يزال هناك من الذنوب ما أندم عليه، فإن ندمي عليها كان خليقًا بأن يكون أكثر

لطفًا وأخف إيلامًا..

وعند انتهاء هذه الطقوس.. وفي اللحظة التي كان ينطق فيها القسيس بهذه الكلمات: "لتشملكم جميعًا بركة الرب"، كنت أشعر براحة نفسية، بل وجسمية، تسري في كياني.. كما لو كان هناك تيار من النور والدفء قد غمر قلبي فجأة..

وكان القسيس يقترب مني في بعض الأحيان- قبل رحيلي- ويسألني قائلًا:

- متى أحضر إلى منزلكن لإقامة بعض الطقوس؟

فكنت أقول له في انفعال:

- أشكرك يا سيدي القسيس على ما تريد أن تفعله من أجلي، وسأحضر إلى هنا بنفسي في العربة أو سيرًا على الأقدام..

- آه! إنك تريدين بهذا أن تتكبدي مزيدًا من المشقة والجهد..

فكنت لا أعرف بماذا أجيبه مخافة أن أقع في خطيئة الغرور..

وفي الأيام التي كانت ماشا فيها لا ترافقني، كنت أصرف العربة من أمام الكنيسة، وأعود وحدي إلى البيت سيرًا على الأقدام، وأحيي في تواضع عميق كل من كان يقابلني في طريقي، وأنا أتحين الفرص لأمد إلى الآخرين يد المساعدة وأسدى إليهم النصح، وأضحي من أجلهم.. فأشارك في رفع عربة غاصت عجلاتها في الوحل، أو أهدئ طفلًا يصرخ عجزت أمه عن تهدئته.. وكنت أخوض في بعض الأحيان في الوحل

لأفسح الطريق للآخرين..

***

وذات مساء، سمعت وكيل أعمالنا يقول لماشا:

– إن هناك فلاحًا يدعي سيمون جاء يطلب مني بعض الخشب ليصنع منه نعشًا لابنته، وروبلًا واحدًا يقيم لها به طقوس الجنازة

فأجبته إلى ما طلب.. وسألته قائلة:

– وهل هو في فقرٍ شديد؟

– إنه فقير للغاية يا آنسة، ويعيش على الكفاف..

فانقبض قلبي على الفور، ولكنني كنت مسرورة في نفس الوقت لأنني علمت ذلك.. فأفهمت ماشا أنني ذاهبة للنزهة، وصعدت إلى غرفتي فأخذت كل ما كان فيها من مال– ولم يكن كثيرًا ولكنه كان كل ما أملك– ثم رسمت علامة الصليب، ورحلت وحدي إلى القرية ميممه شطر كوخ سيمون.. وكان في طرف القرية..

***

لم يكن قد رآني أحد حينما اقتربت من نافذة الكوخ.. فوضعت عليها ما معي من مال، ثم طرقت مصراعها في رفق.. فسمعت في تلك اللحظة صريرًا صادرًا من باب الكوخ، وبرز منه شخص ناداني ولكنني كنت أرتعد من الخوف وكأنني قد ارتكبت جرمًا فهربت عائدة إلى البيت!

وسألتني ماشا أين كنت وماذا كنت أفعل؟ ولكنني لم أفهم حتى ما كانت تقول، ولم أنطق بكلمة واحدة.. وفي تلك اللحظة، كان كل شيء يبدو في نظري تافهًا ولا طائل تحته..

وأغلقت على نفسي باب غرفتي، وأخذت أذرع أرضها طولًا وعرضًا، وأنا أشعر بأنني لا أريد أن أفعل شيئًا أو أفكر في شيء. وكنت لا أستطيع أن أتبين بوضوح ما يعتمل في أعماق نفسي، وأنا أتصور مدى سرور هذه الأسرة المعدمة، والكلمات التي نطق بها أفرادها حيال ذلك الذي وضع النقود على قاعدة النافذة.. وأصبح يحز في نفسي الآن أنني لم أعطهم هذا المال بنفسي.. وكنت أتساءل عمّا عسى أن يقوله سيرج لو أنه علم بما فعلت، ولكن كان يملئني سرورًا أنه لن يعرفه أبدًا!

لقد كانت تغمرني فرحة عظيمة، ويملئني اعتقاد بأنني– أنا والناس جميعًا– بشر غير كاملين.. وكنت أنظر إلى نفسي وإلى الآخرين في كثير من العطف إلى حد أن فكرة الموت ذاتها بدت لي كرؤيا من السعادة.

إنني كنت أبتسم، وأصلي، وأبكي.. وأحببت فجأة البشر جميعًا في تلك اللحظة، كما أحببت نفسي بعنف غريب.. ومددت يدي إلى الإنجيل وقرأت منه فقرات.. فإذا بكل ما كنت أقرأه منه يصبح أكثر وضوحًا وأيسر فهمًا.. وإذا بقصة تلك الحياة الإلهية تصبح أكثر بساطة بالنسبة إلي وأشد تأثيرًا في نفسي.. وإذا بالمشاعر والأفكار التي كنت أكتشفها أثناء هذه القراءة تزداد رهبة وعمقًا في نظري.. ولكن، كم بدا لي كل شيء واضحًا وسهلًا– كذلك– حينما أغلقت الكتاب المقدس،

ونظرت من جديد إلى الحياة التي كنتُ ملقاة فيها والتي كنت أتأملها..

وبدا لي من المحال ألا أعيش عيشة طيبة، وإن من اليسير أن أحب الناس جميعًا، وأن يحبني كل فرد منهم، خاصةً وأنهم كانوا جميعًا على قدر من الرقة بإزائي.. حتى سونيا التي كنت أتابع الدروس معها، أصبحت مختلفة تمامًا، وحريصة على أن تفهم كل شيء، وشغوفة بإرضّائي، وبألا تفعل ما من شأنه أن يغضبني. وكان الآخرون يعاملونني نفس المعاملة التي كنت أعاملهم بها..

***

وانتقلت بعدئذٍ إلى أعدائي لألتمس منهم الصفح قبل اليوم العظيم يوم عيد ميلادي، فتذكرت فقط آنسة من جيراننا كنت قد سخرت منها منذ عام أمام بعض الضيوف فكفت عن زيارتي، فكتبت إليها خطابًا أعترف فيه بخطئي وأرجوها أن تصفح عني. وردت عليّ جارتي تقول لي أنها قد صفحت عني، وأنها بدورها تطلب مني الصفح.. فطفرت من عيني دموع الفرح وأنا أقرأ تلك السطور البسيطة المملوءة بالمشاعر العميقة المؤثرة.

وبكت خادمتي أيضًا حينما طلبت منها الصفح.. فتساءلت حينئذٍ عن السر في أنهم جميعًا كانوا على طيبة كبيرة معي، وفي أنني كنت أستحق منهم كل هذا العطف؟

وحينئذٍ، تذكرت سيرج لا إراديًا ففكرت فيه، وكنت لا أستطيع أن أفعل غير ذلك.. ولم أعتبر أن هذا الشرود من جانبي بعد خطيئة..

والواقع أنني لم أفكر فيه على الإطلاق بنفس الطريقة، التي فكرت فيه بها في تلك الليلة التي اكتشفت فيها لأول مرة أني أُحبه.. وإنما كنت أفكر فيه تمامًا كما كنت أفكر في نفسي، وأشركه على الرغم مني في كل ما يتعلق بمستقبلي، وكان تأثيره المسيطر على نفسي ينمحي من مخيلتي تدريجًا.. إذ أصبحت أشعر اليوم بأنني مساوية له، وكنت أفهمه حق الفهم وأنا في قمة البناء المثالي الذي كنت أحلق فوقه، وصار مفهومًا بالنسبة إليّ كل ما كان يبدو لي غريبًا فيه.. وأدركت اليوم فقط معنى تلك الفكرة التي كان قد عبّر لي عنها، وهي أن السعادة في أن يعيش المرء من أجل الآخرين، وأصبحت أقرّه تمامًا على هذا الرأي.

وكان يبدو لي أننا سننعم معًا بسعادة لا حدّ لها.. وكنت لا أفكر في سفر إلى الخارج، أو بهرجة، أو مجتمع راقٍ، بل حياة هادئة: حياة أسرة في الريف، وإنكار دائم لإرادتي الذاتية، وحب متبادل مستمر، واعتراف دائم بجميل العناية الإلهية، وشكر مطلق لله على معونته الحلوة.

***

وفي اليوم الموعود، يوم عيد ميلادي، قمت بالطقوس التي كنت أنوي أن أقوم بها فيه وقد طفح قلبي بالسعادة، حتى أنني عدت من الكنيسة يومئذٍ وفي نفسي الكثير من الهواجس.. فكنت أشعر بالخوف من الحياة، ومن كل إحساس، ومن كل ما يمكن أن يعكر صفو هذه السعادة..

وما كدنا ننزل من العربة أمام درج الشرفة حتى سمعت جلبة عربة سيرج المعروفة، وهو يمر من فوق "الكوبري" وسرعان ما لمحت سيرج نفسه..

وتلقيت تهنئته، ثم دلفنا معًا إلى الصالون.. ولم أشعر قط منذ أن عرفته بمثل الهدوء الذي كنت أشعر الآن به وأنا إلى جواره، كما لم أشعر أبدًا باستقلال كهذا الذي شعرت به في الصباح.. وكنت أشعر حينئذٍ بأنني أحمل في نفسي عالمًا جديدًا بأسره، ولم أكن أشعر وأنا إلى جواره بأدنى اضطراب. ومع ذلك، فربما فهم ما كان يعتمل في نفسي لأنه أبدى نحوي عطفًا واحترامًا لا حدّ لهما.. وكنت قد اقتربت من البيانو، ولكنه أغلقه ووضع مفتاحه في جيبه ثم قال:

– لا تفسدي هذه الحالة النفسية التي أراك فيها الآن، فهناك موسيقي تتردد في نفسك لا يدانيها أعذب الأنغام في هذا العالم!

وشعرت نحوه بالاعتراف بالجميل لكلامه هذا.. ولم يضايقني كثيرًا في نفس الوقت– أنه فهم بسهولة، وفي أتم وضوح– كل ما كان ينبغي أن يظل سرًا في نفسي بالنسبة لكل الآخرين..

وما إن نطق سيرج بهذه الكلمات، حتى نظر إلى ماشا.. ثم ألقى عليّ نظرة سريعة كما لو كان يخشى أن يلاحظ على وجهي شيئًا من الانفعال، ولكن لم يبد عليّ أثر للدهشة أو الاضطراب، ولم أسأله حتى عمّا إذا كان غيابه سيكون لوقت طويل.

***

لقد كنت أعرف أنه سيقول لي هذا الكلام، وكنت أعرف أيضًا أنه لن يسافر.. ولا أستطيع الآن أن أفسر كيف عرفت ذلك، ولكنه كان يبدو لي في هذا اليوم المشهود أنني كنت أعرف كل ما كان وكل ما

سيكون.. وكنت غارقة في حلم من تلك الأحلام السعيدة، التي يتاح فيها للمرء نوع من الرؤيا المشرقة، تكشف له عن المستقبل وتكشف له عن الماضي.

وأراد سيرج أن يرحل بعد الغداء مباشرة، ولكن ماشا كانت قد ذهبت لتغفو قليلًا.. فاضطر إلى الانتظار حتى تستيقظ ليودعها..

وكانت الشمس تغمر أرض الصالون فذهبنا إلى الشرفة، وما كدنا نجلس حتى بدأت– في هدوء تام– ذلك الحديث الذي كان يتوقف عليه مصير حبي.. بدأته في نفس اللحظة التي جلست فيها أمامه وجهًا لوجه، ولم ترد فيه كلمة واحدة أكثر مما كان ينبغي أن يقال، ولم يتسرب إليه شيء كان يمكن أن يعوق ما كنت أريد أن أقوله.. ولست أستطيع أنا نفسي أن أدرك من أين جاءني هذا الهدوء، وهذا الإصرار، وهذه الدّقة في التعبير.. بل كان يبدو لي أنه لم أكن أنا التي تتكلم، وإنما كان هناك شيء أخر مستقل تمامًا عن إرادتي هو الذي كان يدفعني إلى الكلام..

كان سيرج لا يزال جالسًا أمامي؛ فانتزع غصنًا من إحدى شجرات الورد.. انتزعه فجأة بما فيه من أوراق. وحينما هممت بأن أتكلم، ترك هذا الغصن جانبًا وغطّى وجهه بيده.. وهي حركة إما أن تدل على أنه رجل هادئ كل الهدوء، أو تدل على أنه كان– على النقيض– يعاني اضطرابًا بالغًا..

وبدأت حديثي بلهجة تنبض نبراتها بالتصميم، فقلت له:

– لماذا ترحل؟

وتوقفت لحظة، وأنا أنظر مباشرة في عينيه..

فلم يجب على سؤالي في الحال، وتمتم قائلًا– بعد لحظة– وقد غضّ من بصره:

– إن لدي أعمالًا..

وفهمت أنه كان من العسير عليه أن يكذب في الرد على سؤال وجهته إليه بمثل هذه الصراحة، وقلت له:

– أنصت إليّ.. إنك تعرف ما لهذا اليوم من قيمة لديّ، وهو من مختلف الوجوه يوم عظيم.. وإذا ما سألتك، فليس ذلك لمجرد أنني أبين لك مدى اهتمامي؛ فأنت تعلم أنني آلفك وأحبك، وإنما أسألك لأنه يجب عليّ أن أعرف لماذا ترحل؟

فأجابني قائلًا في هدوء:

– إنه يصعب عليّ كثيرًا أن أقول لك الحقيقة، وأن أقول لك لماذا أرحل.. وقد فكرت فيك مليًا– وفي نفسي– خلال هذا الأسبوع؛ فقررت أنه يجب عليّ أن أرحل. إنك تفهمين لمَ إذًا، فإذا كنت تحبينني فلا تسأليني..

ومسح سيرج جبينه بيده، ثم غطى عينيه بنفس هذه اليد، وأضاف قائلًا:

–إن هذا صعب عليّ.. ولكنك تفهمين يا كاتيا.

فأخذ قلبي يدق في صدري بعنف.. وقلت له:

- إنني لا أستطيع أن أفهم.. لا أستطيع! ولكن.. أنت، تكلم.. بحق السماء، وبحق هذا اليوم الذي نحن فيه.. تكلم؛ ففي استطاعتي أن أفهم كل شيء في هدوء..

فغير موضعه.. وتطلع إليّ، ثم أمسك بغصن شجرة الورد فرفعه قليلًا، ثم قال- بعد لحظة صمت- بصوت كان يحاول عبثًا أن يجعله ثابتًا هادئ النبرات:

- سأحاول مع ذلك أن أُدلي إليك ببعض المبررات على الرغم من أن ذلك يبدو لي سخيفًا، ويكاد يكون مستحيلًا أن أعبّر عنه بالألفاظ، فضلًا عن أنه صعب بالنسبة إليّ!

وما كاد ينتهي من هذه الكلمات، حتى قطب ما بين حاجبيه كأنما يشعر بألم جسماني.. وقلت له:

- حسنًا؟

فقال:

- تصوري أن هناك رجلًا عجوزًا أتعبته الحياة، ولنفترض أن اسمه "أ".. وأن هناك سيدة- ولنقل إن اسمها "ب" شابة، سعيدة، لا تعرف بعد شيئًا عن الحياة.. وأن هذا الرجل كان يحبها كابنة بسبب علاقات عائلية معينة.. وكان يخشى أن يتطور حبه هذا إلى حب من نوع آخر.

***

وصمت سيرج فلم أقاطعه.. وفجأة، استأنف حديثه بصوت جاسم

النبرات– ودون أن ينظر إليّ– قائلًا: "إذ يعتقد أن "ب" شابة صغيرة السن، وأنها لا تزال تنظر إلى الحياة في غير جد، وأنه قد يحدث بسهولة كبيرة أن يحبها، وأن "ب" قد تتسلى بهذا الحب. ولاحظ ذات يوم أن شعورًا شديد الوطأة– كأنه الندم– قد تسرب إلى نفسه فتملكه الذعر.. وخشي أن تفسد علاقات الصداقة الطيبة؛ فقرر أن يبتعد قبل أن تتغير طبيعة هذه العلاقات..

وما كاد سيرج يتم عبارته حتى وضع يده على عينيه في إهمال ظاهر..

فقلت على الفور وأنا أكبتُ انفعالي:

– ولماذا كان يخشى أن يتطور حبه إلى حب آخر؟ تُرى هل بدت له غير جادة في حبها؟!

فأجابني سيرج قائلًا، وقد بدا عليه أنه جرح:

– إنك صغيرة السن، ولكني لم أعد كذلك.. وقد يحلو لك أن تمزحي بالحب، ولكن يلزمني أنا شيء آخر..

وصمت قليلًا ثم أضاف يقول:

–هذا هو ما قاله "أ"، ولكن هذا كله سخف، وأنت تفهمين الآن لماذا أرحل.. كُفِي كلامًا في هذا الموضوع.. أرجوكِ!

فقلت والدموع تهز صوتي:

– كلا، كلا.. بل لنتكلم فيه.. هل كانت تحبه أم لا؟

ولم يجب سيرج.. فاستطردت أقول:

–وإن كان لا يحبها، فلماذا كان يلعب معها كما يلعب مع صبية صغيرة؟

فأجابني مقاطعًا:

– نعم، نعم.. إن "أ" كان مخطئًا، ولكن هذا الآن قد انتهى وافترقا وهما صديقان متفقان!

فسألته قائلة، وأنا مذعورة مما كنت أقول:

– ولكن هذا أمر بشع.. أليست هناك نهاية أخرى؟

– بلى.. هناك نهاية أخرى..

ورفع يده عن وجهه المضطرب، ونظر إليّ وهو يقول:

– بل هناك نهايتان مختلفتان.. ولكن، بحق السماء، لا تقاطعيني بعد الآن وأنصتي إليّ في هدوء!

***

ونهض سيرج، وقد علت شفتيه ابتسامة كئيبة مؤلمة، وأستطرد قائلًا:

–إن البعض يقولون أن "أ" قد جنّ إذا أحبّ "ب" حبًا غير منطقي وصرّح لها به.. ولكنها اكتفت بأن سخرت منه؛ فالأمر بالنسبة إليها لم يكن إلا مزاحًا، أما بالنسبة إليه فكان مشكلة حياته بأسرها..

فارتجفت.. وحاولت أن أقاطعه لأقول له أنه ينبغي ألا يتكلم نيابة عني.. ولكنه منعني من ذلك ووضع يده على يدي، وأنهى حديثه قائلًا في صوت مضطرب:

-انتظري.. يقول أناس آخرون أنها أشفقت عليه، وتخيلت هذه اليائسة التي لم تعرف الدنيا بعدُ أنها تستطيع حقًا أن تحبه؛ فارتضت أن تكون زوجةً له.. وأعتقد هو- كالمجنون- أن حياته يمكن أن تبدأ من جديد.. ولكنها لاحظت هي نفسها أنها كانت تخدعه، وأنه كان يخدعها.

وكفّ سيرج عن الكلام لحظة، ثم قال في إيجاز وقد بدا عليه أنه لم يكن في حالة تسمح له بأن يقول أكثر من ذلك:

-كفانا كلامًا في هذا الموضوع!

وجاء ليجلس أمامي من جديد، وهو يكرر قائلًا: "كُفّي كلامًا"!

وكان يبدو واضحًا أنه كان يترقب بلهفة كلمة مني.. وكنت أريد حقًا أن أتكلم، ولكنني كنت عاجزة عن الكلام، فقد كان هناك شيء يجثم على صدري.

ورفعت إليه عيني فرأيته شاحبًا ترتعد شفته السفلى، وكنت أقاسي من أجله أشد الألم.. فبذلت جهدًا جديدًا، ونجحت فجأة في أن أقطع الصمت الذي كان يشلني، وقلت بصوت بطيء مركز كنت أخشى أن

يتداعى فيعاودني العجز عن الكلام:

– ثمة نهاية ثالثة لهذه القصة..

***

وتوقفت عن الكلام، ولكنه ظل صامتًا.. فأردفت قائلة:

– وتتلخص النهاية الثالثة في أن "أ" لم يكن يحب "ب"، فسبب لها ألمًا كبيرًا، وكان يعتقد أن له الحق في ذلك، فرحل.. بل فعل ما هو أكثر من ذلك، ففاخر بما فعل..

وسكت لحظة قلت بعدها:

–إن المزاح لم يحدث من ناحيتي بل من ناحيتك؛ فقد أحببتك من أول يوم..

وحينما نطقت بكلمة "أحببتك"، تغير صوتي بطريقة لا إرادية.. وتحولت فجأة نبرته البطيئة المركزة إليّ نوع من الصباح البدائي أثار الذعر في نفسي!

كان سيرج واقفًا أمامي شاحب الوجه، وقد تضاعف اضطراب شنبه، وانحدرت على خده دمعتان كبيرتان.. فصحت أقول في ألم وأنا أختنق من الغيظ ومن دموعي المحبوسة:

– إنك مخطئ في تصوراتك وأوهامك..

ونهضت لأبتعد، وأنا أضيف قائلة:

-ولماذا.. كل هذه الأوهام؟

ولكنه اندفع نحوي.. وأسند رأسه إلى ركبتي، وأخذت شفتاه المرتجفتان تقبلان يدي المضطربتين، بينما راحت عيناه تغرقهما بالدموع وهو يتمتم قائلًا:

- آه! يا إلهي! يا إلهي! لو أنني..

وأخذت أردد في صوت مرتعش:

- لماذا؟ .. لماذا؟

ولم تكد تنقضي خمس دقائق، حتى كانت سونيا تسرع إلى الطابق الأعلى حيث كانت ماشا، ثم تطوف أرجاء البيت كله وهي تصيح قائلة:

- إن كاتيا ستتزوج سيرج ميخايلوفتش..

الفصل الخامس

لم يكن هناك ما يدعو لإرجاء زفافنا، ولم يكن أحد منّيا يرغب في ذلك.. إلا أن ماشا كانت تريد الرحيل إلى موسكو لشراء بعض الحاجيات والتوصية على ثوب الزفاف. وكانت والدة سيرج تلح على ابنها في أن يشتري عربة جديدة وأثاثًا جديدًا وأن يبدل ستائر المنزل قبل الزواج، ولكننا أصررنا على أن يتم ذلك فيما بعد، وأن يُعقد زواجنا بعد عيد ميلادي بأسبوعين بلا ضوضاء، ولا ثوب للزفاف، ولا فتيات شرف، ولا عشاء أو شمبانيا، ودون شيء من الملحقات التقليدية للزواج..

وقصّ عليّ سيرج كم كانت أمه غاضبة لأن الزفاف سيتم هكذا بلا موسيقى ولا سيل من صناديق الهدايا، ودون أن يجدد البيت بأسره كما حدث قبيل زفافها الذي تكلف ثلاثين ألفًا من الروبلات.. وكم بحثت من وراء ظهره في الخزائن والصناديق والصواوين، وعقدت اجتماعات وأجريت مشاورات جدية مع "ماريوشكا"- مدبرة المنزل- بشأن بعض الأبسطة والستائر "والصواني" اللازمة..

وفي بيتنا، كانت ماشا تفعل نفس الشيء مع خادمتي "كوزمينشنا" ولا تقبل مزاحًا في هذا الشأن.. وكانت مقتنعة تمامًا بأنني حين كنت أتكلم مع سيرج بشأن مستقبلنا؛ فإنني لم أكن أتبادل معه سوى الحديث الناعم الحلو الذي لا يغني ولا يسمن- كما هو مألوف في مثل موقفنا-

وكان من رأيها أن جوهر سعادتنا نفسه كان لا يتوقف ألا على روعة حياكة ثيابي وجمال أثاثي، وعلى مدى المهارة الفنية التي تعد بها "الأغطية" والمناشف والستائر وما إليها..

وفي كل يوم، كانت تحدث عدة اتصالات غريبة بين بيتي- "بوروفسكي" و"نيكولسكي" بشأن الكيفية التي ترتب بها الأمور.. ومع أن جميع مظاهر العلاقات الطيبة الحنون كانت متوفرة بين ماشا ووالدة سيرج؛ فقد كنّا نشعر بأن بينهما شيئًا من الخلاف في وجهات النظر.. كان يبدو أحيانًا في صورة ديبلوماسية فيها كثير من الرقة والمهارة!

وكانت "تاتيانا سيمينوفنا" والدة سيرج التي توثقت معرفتي بها، سيدة متعجرفة من العهد البائد، وربة بيت قاسية.. ولم يكن سيرج يحبها كما يجب أن يحب الابن أمه وحسب، بل كان يرى فيها أذكى وأفضل وأرق وألطف امرأة في العالم!

والواقع أن والدة سيرج كانت معنا دائمًا- ومعي أنا بوجه خاص- على قدر كبير من الطيبة، وكانت تُبدي فرحها لزواج ابنها.. ولكني حينما أصبحت خطيبة لهذا الابن، بدا لي أنها كانت تريد أن تشعرني بأنه كان يستطيع أن يتزوج فتاة أفضل مني، وأن عليّ ألا أنسى ذلك أبدًا.. فكنت أدرك هذا جيدًا وأوافقها على هذا الرأي.

***

وفي هذين الأسبوعين الأخيرين، كان كلٌ منّا يرى الآخر كل يوم؛ إذ كان سيرج يأتي لتناول العشاء ويبقى في بيتنا إلى منتصف الليل.. وعلى

الرغم من أنه كان يقول لي كثيرًا– وكنت أعرف أنه يصدقني القول– إنه لا يستطيع أن يعيش بدوني فإنه كان لا يقضي معي أبدًا النهار كله، وكان يتصرف بطريقة يستطيع معها أن يتابع عنايته بأعماله..

وظلت علاقتنا الخارجية حتى يوم الزفاف كما كانت من قبل، وظل الحديث يجري بيننا بكلفة.. وكان لا يقبل حتى يدي، وتجنب الفرص التي كانت تسنح له لينفرد بي.. بل ولا يحاول أن يخلق هذه الفرص، وكأنه كان يخاف أن يطلق العنان لذلك الحنان الكبير الخطير الذي كان يحمله في نفسه.

وكان الجو رديئًا طيلة هذه الأيام، فقضينا أكثر وقتنا معًا في الغرفة، وكان الحديث يدور بيننا في الركن الواقع بين البيانو والنافذة.

وذات يوم، قال لي بينما كنّا نجلس وحدنا معًا– في هذا الركن– في ساعة متأخرة:

– هل تعرفين أن هناك شيئًا أريد أن أحدثك عنه منذ وقت طويل، ولم أنقطع عن التفكير فيه وأنت تعزفين على البيانو؟

– لا تقل شيئًا، فأنا أعرف كل شيء..

– أحقًا لا داعي للكلام؟

– إذا كنت ترى أنه من الضروري أن تحدثني عنه فلا بأس..

– هل تذكرين حينما قصصت عليك قصة "أ"، "ب"؟

– وكيف لا أذكر هذه القصة؟ وينبغي أن نسر لأنها انتهت هكذا..

– لقد أوشكت أن أحطم سعادتي بيدي، ولكنك أنقذتني.. وأسوأ ما في الأمر أنني كنت أكذب حينئذٍ، وأن ضميري ليشعر بذلك وأريد اليوم أن أقول لك كل شيء..

– آه! لا تفعل ذلك رحمةً بي!

فقال لي وهو يبتسم:

– لا تخافي شيئًا، بل يجب عليّ فقط أن أبرز موقفي.. فحينما بدأت معك الكلام كنت أريد أن أتناقش..

– ولماذا نتناقش؟ إن من واجبنا ألا نتناقش أبدًا.

وصمت لحظة وهو ينظر إليّ ثم قال:

– وبعد، فلم يكن ما كنت أقوله مع ذلك سخفًا؛ إذ الواقع أنه كان لدي ما أخشاه، وكنت على حق في ذلك؛ فإني أخذ منك كل شيء ولا أعطيك إلا القليل.. إنك لا تزالين صغيرة، وأنت البرعم الذي لم يتفتح بعد، وتحبين لأول مرة، بينما أنا..

فصحت قائلة:

– آه! نعم! قل لي الحقيقة إذن..

ولكنني سرعان ما شعرت بالخوف من إجابته فأضفت قائلة:

– كلا، كلا.. لا تقل لي شيئًا!

فأدرك على الفور ما كنت أفكر فيه، وقال:

- تريدين إذن أن تعرفي إذا كنت قد أحببت من قبل؟ أليس كذلك؟ في وسعي أن أخبرك بذلك.. كلا، إنني لم أحب.. ولم أجرب أبدًا مثل هذا الشعور.. ولذلك، فقد رأيت أنه كان يجب على أن أفكر مليًا قبل أن أقول لك أنني أحبك.. ماذا أعطيك؟ الحب؟ هذا صحيح..

فقلت وأنا أنظر مباشرةً في عينيه:

- وهل الحب شيء قليل؟

- نعم.. إنه شيء قليل يا صديقتي.. قليل عليك. إن لديك الجمال والشباب، وكثيرًا ما تمنعني السعادة من النوم أثناء الليل فلا أكفّ عن التفكير في كيفية معيشتنا معًا.. لقد عشت طويلًا.. ولكن يبدو لي مع ذلك أنني لم ألتقِ بالسعادة إلا منذ أيام، وأن حياة حلوة هادئة تنتظرني في بيتنا المنعزل، مع إمكانيات واسعة لفعل الخير من أجل فلاحينا، الذين يسهل كثيرًا تحقيق الخير لهم، والذين لم يألفوا كثيرًا أن يفعل الخير من أجلهم.. ثم أن هناك العمل، العمل الذي يعرف الجميع أنه ينتج عنه دائمًا بعض النفع.. وهناك أيضًا التسلية، والطبيعة، والكتب، والموسيقى، وعطف صادر عن قلب مفعم بالحب.. تلك هي السعادة، وهي سعادة أسمى بكثير عن كل ما كنت أحلم به.. وهناك، فوق كل ذلك، صديقة مثلك، وربما أسرة، وباختصار: كل ما يمكن للرجل أن يشتهيه في هذه الدنيا!

فقلت له في إيجاز:

- نعم..

فعاد يقول:

- نعم بالنسبة إليّ.. أنا الذي تجاوزت مرحلة الشباب، ولكن أنتِ.. إنك لم تعيشي بعد، وكان من المحتمل أن تجرى وراء السعادة في شيء آخر، وربما كنت تجدينها في هذا الشيء..

- كلا.. إنني لم أرغب أبدًا في شيء، ولم أحب شيئًا كما أحببت هذه الحياة العائلية الحلوة، وقد أخبرتني منذ قليل بما أفكر فيه وما أتمناه وأرجوه..

فابتسم وقال:

- إن الأمور تبدو لك هكذا يا صديقتي، ولكن ما قلته يعتبر شيئًا قليلًا بالنسبة إليكِ..

وسكت لحظة قصيرة، ثم كرر قائلًا وقد بدت على محياه علامات التفكير:

- إن لديك الجمال والشباب..

ومع ذلك فقد ضقت بما قال؛ لأنني كنت أرى أنه لا يريد أن يصدقني، ولأنني فهمت أنه كان يبدو عليه أنه يلومني على جمالي وشبابي.. فقلت له في شيء من الغضب:

- قل لي لماذا تحبني؟ لشبابي.. أم من أجلي أنا نفسي؟

فأجابني قائلًا وهو يتأملني بنظرة فاحصة كلها إغراء:

– لست أدري، ولكنني أحبك..

فلم أقل شيئًا ونظرت في عينيه بحركة لا إرادية.. وفجأة، كففت عن رؤية ما حولي، وانمحى وجهه من أمامي.. ولم أعد أميز غير بريق عينيه اللتين كانتا أمام عيني مباشرة.. ثم بدا لي أن عينيه تنقذان إلى قلبي، وأصبح كل شيء غامضًا فجأة.. ولم أعد أرى شيئًا على الإطلاق، واضطررت إلى أن أغمض عيني قليلًا لأنتزع نفسي من هذا الشعور الممزوج بالمتعة والفزع، والذي كانت نظرته تثيره في نفسي.

***

وغدًا الجو صحوا في مساء اليوم السابق ليوم زواجنا..

وأشرقت علينا أول أمسية ربيع صحوة بعد هذه الأمطار التي بدا بها فصل الصيف.. كانت السماء صافية شاحبة، وذهبت لأنام وأنا أفكر في أن الجو سيكون جميلًا في اليوم التالي، يوم عرسنا.

واستيقظت في ذلك الصباح والشمس في وجهي وأنا أشعر بأنه اليوم المشهود.. وكأنما كان ذلك كفيلًا بأن يثير الفزع والدهشة في نفسي. ونزلت إلى الحديقة، وكانت الشمس قد أشرقت منذ لحظات وأخذت تسطع من خلال أشجار التيليو القائمة في الممر، والتي كانت أغصانها المصفرة تنفض أوراقها وتغمر به الممر.. ولم يكن من المستطاع أن يجد المرء سحابة واحدة في هذه السماء الباردة الصافية.

وقلت أسأل نفسي: "أيمكن حقًا أن يكون هذا هو اليوم الذي

حلمت به؟ وهل من الممكن ألا أستيقظ هنا غدًا، وإنما في بيت "نيكولسكي" بأعمدته، وهو بيت غريب الآن بالنسبة إليّ! هل حقًا أنني أنتظره وأترقب وصوله، وأنني أتحدث عنه في المساء مع ماشا؟ وأنني لن أجلس بعد ذلك أمام البيانو إلى جواره في ردهة بيتنا بيوكروفسكي؟ وأنني لن أوصله وأنا أرتجف خوفًا أثناء سيرى خلفه في ظلام الليل البهيم؟

ومع ذلك، فقد تذكرت أنه قال لي بالأمس أن هذه كانت آخر مرة يأتي إليّ فيها. وكانت ماشا من جهة أخرى قد حثتني على أن أجرب إرتداء ثوب الزفاف، فكنت أصدق أحيانًا وبعدها يخامرني الشك من جديد.. تُرى هل سأبدأ حقًا منذ هذا اليوم في أن أعيش مع حماة، وبغير "نادين" ولا ماشا ولا جريجوار العجوز؟ وأني– في المساء– لن أقبل خادمتي، ولن أسمعها تقول لي وهي ترسم علامة الصليب حبيب العادة القديمة: "طاب مساءك يا آنسة"؟ ألن أعطي سونيا– بعد الآن– دروسها المعتادة وألعب معها؟ وأقرع بقبضة يدي جدار غرفتها في الصباح فأسمع ضحكتها الرنانة؟ وهل من الممكن أن أصبح اليوم غريبة تقريبًا عن نفسي، وأعيش حياة جديدة تركزت بها أمنياتي وآمالي في.. وهل من الممكن أن يستمر إحساسي بالنشوة والسعادة لهذه الحياة الجديدة؟

وكنت أنتظر سيرج بصبر نافد الشدة ما كان عسيرًا عليّ أن أظل وحدي مع هذه الأفكار.. وجاء سيرج مبكرًا؛ فأيقنت فقط في هذه اللحظة أنني سأكون زوجته في نفس هذا اليوم، ولم يعد يصحب هذه الفكرة شيء يثير الفزع في نفسي..

***

وذهبنا إلى الكنيسة لنستمع إلى صلوات أقيمت من أجل والدي.. وأخذت أفكر أثناء عودتنا إلى البيت، وأنا أستند في صمت إلى ذراع الرجل الذي كان خير صديق لمن كنت أفكر فيه.. وليته كان لا يزال في هذه الدنيا!

لقد كان رأسي ملتصقًا ببلاط الكنيسة البارد طيلة الوقت، الذي كنت راكعة فيه داخل الكنيسة أثناء تلاوة الصلوات.. وكنت قد تذكرت والدي في عنف وأحسست أن روحه كانت تفهمني وتبارك اختياري، وتصورت أن روحه كانت تحلق فوقنا وتنزل بركتها عليّ..

وكانت هذه الذكريات والآمال والسعادة والأحزان تمتزج في نفسي في شعور واحد رهيب وعذب معًا، وهو شعور كان يتمشّى مع هذا الجو الراكد المنيف، وهذا الهدوء، وهذه الحقول الجرداء، وهذه السماء الشاحبة التي كانت أشعة شمسها اللامعة الواهنة تحاول عبثًا أن تحرق خدي..

وأيقنت في تلك اللحظات أن الرجل الذي يصاحبني، كان يفهم مشاعري ويشاطرني إيّاها.. لقد كان يسير في صمت وبخطى بطيئة. وكنت من آنٍ لآخر أتطلع إلى وجهه، فأرى علامات التركيز النفسي مرتسمة عليه، وهي حالة من حالات النفس تتجرد فيها من الحزن ومن السرور معًا.. وكان وجهه ينسجم هكذا مع الطبيعة ومع قلبي..

والتفت إلي سيرج فجأة، فلاحظت أنه كان لديه ما يريد أن يفضي به إليّ.. ماذا؟ ألن يفضي إليّ بما يشغل باله؟ ولكنه في تلك اللحظة حدثني عن والدي بالذات، ثم أضاف قائلًا دون أن يذكر اسمه:

لقد حدث ذات يوم أن قال لي مازحًا: إنك ستتزوج صغيرتي كاتيا.

وجذبني إليه– في شدة– بذراعه التي كنت أستند إليها، وقال لي:

– كم كان والدي خليقًا بأن يكون سعيدًا اليوم!.

ثم تغلغل بنظرته في أعماق عيني، واستطرد يقول:

نعم.. إنكِ كنت لا تزالين طفلة، وكنت حينئذٍ أقبل عينيك لمجرد إنهما كانتا تشبهان عينيه، ولم يدر بخلدي قط إنهما ستكونان عزيزتين لدي في يوم من الأيام لذاتهما فقط.

***

كنا نسير على مهل في الطريق الضيق غير المرصوف الذي يتوسط الحقول ولا يطرقه كثير من الناس.. وكنا نطأ بأقدامنا ذلك القش المتناثر على الأرض، ولا نسمع إلا وقع خطانا وأصواتنا.. وكانت الشمس تنشر أشعة خالية من الدفء، وكانت أصواتنا حين نتكلم تحدث إصداء تتردد في الفضاء، وتظل معلقة فوق رؤوسنا وسط هذا الجو الراكد.. وكان يبدو أننا وحدنا في هذا العالم بأسره تحت هذه القبة اللازوردية، التي كانت تضطرب فيها أشعة الشمس الفاترة.

وحينما بلغنا البيت، وجدنا والدته هناك ومعها بعض الضيوف الذين لم نستطع أن نتجنب دعوتهم.. ولم أصبح معه على انفراد إلا لحظة خروجنا من الكنيسة، وركوبنا العربة للذهاب إلى بيت نيكولسكي.

***

كانت الكنيسة تكاد تكون خالية، وبنظرة سريعة لمحت أمه واقفة على بساط إلى جوار المحراب، وكانت ماشا ترتدي قبعة مزينة بأشرطة ملونة، وكان خداها مبتلين بالدموع.. وكان بالكنيسة أيضًا اثنان أو ثلاثة من مزارعينا، كانوا ينظرون إليّ في فضول.

وأخذت أنصت إلى الصلوات وأرددها، ولكن دون أن يكون لها صدى في نفسي، وكنت لا أستطيع أن أصلي أنا نفسي.. وإنما كنت أنظر في شرود إلى الصور والشموع والصليب الموشي، الذي كان يتدلى على صدر القسيس، وإلى صورة العذراء مريم وهي تحمل السيد المسيح، وإلى نوافذ الكنيسة.. فلا أفهم شيئًا من كل ذلك، بل كنت أشعر فقط بأن شيئًا غير عادي كان يجري من أجلي..

والتفت القسيس نحونا وفي يده الصليب؛ فهنأنا وقال إنه كان قد عمدني، وإن الله قد قدر له كذلك أن يتم زواجي على يديه.. وقبلتنا ماشا ووالدة سيرج.. ثم سمعت جريجوار ينادي العربة فاندهشت.. وسرعان ما تملكني الذعر إذ أدركت أن كل شيء قد انتهى، دون أن يحدث في نفسي ما يقابل ذلك الرباط المقدس الذي تم بيننا منذ لحظة!

وقبّل كلٌّ منّا الآخر، فبدت لي هذه القبلة غريبة بالنسبة إلى شعوري الدفين، حتى أنني لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أتساءل: "هل هذا كل شيء؟".

وخرجنا إلى مدخل الكنيسة فسمعت دويًا كبيرًا.. وهبت نسمات منعشة عطرت وجهي، بينما كان سيرج يعينني على أن أتخذ مكاني في

العربة وقد تأبط قبعته.

ومن خلال زجاج العربة، لمحت ضوء القمر يتموج كما يحدث عادة في الليالي الباردة، وجلس سيرج إلى جواري وأغلق الباب. وشعرت في تلك اللحظة بأن شيئًا يخترق قلبي، كما لو كانت الثقة التي أغلق بها باب العربة قد جرحت شعوري!

واصطدمت عجلات العربة بحجر في الطريق، ثم دخلنا بعد ذلك في طريق آخر أكثر حنانًا.. وكنت أنزوي في ركن العربة أتأمل الحقول التي كان القمر يغمرها بفيض من ضيائه، والطريق الذي كان يبدو أنه يجرى. ودون أن أنظر إلى سيرج، كنت أشعر بأنه ملتصق بي، ففكرت قائلة في نفسي: "أهذا هو كل ما تمنحه لي هذه الدقيقة الأولى، التي كنت أنتظر منها أشياء كثيرة؟" وشعرت حينئذٍ بالإذلال والإهانة في نفس الوقت، وأنا أجد نفسي جالسة هكذا وحدي معه، وقريبة جدًا إليه!

فالتفتُ إليه وفي نيتي أن أقول له أي شيء، ولكن لم تخرج كلمة واحدة من بين شفتي.. وكان يبدو أنه لم يعد هناك أي أثر في نفسي لحنان قديم، وإن شعوري هذا بالفزع والإهانة قد حل تمامًا محل هذا الحنان؟

وأجاب سرج في رفق على نظرتي قائلًا:

– لم أكن أجرؤ حتى هذه اللحظة على الاعتقاد بأن هذا كان يمكن أن يحدث!

– وأنا.. لست أدري لماذا أنا خائفة؟

فأمسك بيدي ومال نحوي قائلًا:

– هل أنتِ خائفة مني يا كاتيا؟

وكانت يدي تستند إلى يده بلا حياة.. وقلبي يكاد يكف عن الحركة..

فتمتمت قائلة:

– نعم..

ولكن، في نفس اللحظة، أحسست بقلبي يدق فجأة بعنف أكثر، وارتجفت يدي وهي تمسك بيده.. وبحثت عيناي عن عينيه في شبه الظلام، وشعرت فجأة بأنني لم أعد خائفة منه، وإن هذا الفزع لم يكن سوى الحب.. الحب الجديد الطارئ الذي ازداد قوةً وحنانًا عن ذي قبل.. وشعرت بأنني أصبحت ملكًا له بكل مشاعري، وأنني كنت سعيدة لوقوعي تحت سلطانه!

الفصل السادس

وبدا لنا أن الأيام والأسابيع، بل وشهرين كاملين من حياة العزلة في الريف قد مرّت بنا دون أن نشعر، ولكن أحاسيس هذين الشهرين وسعادتهما كانت كافية لملء حياة بأكملها.. ولم تتحقق أحلامنا المتعلقة بطريقة ترتيب حياتنا– كما كنا ننتظر– ومع ذلك، فلم تكن الحقيقة بأقل من خيالنا!

ولم تكن حياتنا في تلك الفترة حياة العمل البحت الحافلة بالتقشف والواجبات والتضحيات على نحو ما كنت أتخيلها أيام خطبتي، بل على العكس كنت أشعر فيها بشعور الحب الأناني الأخّاذ، وبمسرات لا حد لها، وبأنني نسيت كل شيء في العالم.

والواقع أن سيرج كان يذهب في بعض الأحيان إلى غرفة مكتبه حيث ينهمك في بعض الأعمال، كما كان يذهب أحيانًا أخرى إلى المدينة من أجل أعماله كذلك، ويلاحظ شئون زراعته.. فكنت ألاحظ أنه كان ينتزع نفسه من عندي انتزاعًا، وكان يقاسي من جراء ذلك ألمًا كبيرًا.. وكان يعترف لي بعد ذلك بنفسه بأن المكان الذي لا أكون أنا فيه يبدو له مظلمًا كئيبًا لا حياة فيه.

وكنت أحاول أن أتسلى بالقراءة أو أشغل نفسي بالموسيقى وبحماتي

وبنشاط المدارس، أثناء غيابه.. ولكن ذهني كان دائمًا معه وخواطري وأفكاري كلها تدور حوله، ونفسي تتلهف لرؤيته، فقد كان سيرج هو المخلوق الوحيد في هذا الكون بالنسبة إليّ، وكنت أعتبره أجمل وأطهر من فيه.. ومن ثم فلم أكن أستطيع أن أعيش من أجل سواه، وكنت أحرص على أن أظل في عينيه دائمًا كما كان يريدني أن أكون.. وكان هو يراني أيضًا أجمل نساء العالم وأكثرهن سحرًا، ويسبغ عليّ كل صفات الكمال الممكنة، فكنت أجتهد في أن أكون في عينيه أحسن زوجة في الوجود..

***

وكان بيتنا مسكنًا ريفيًا قديمًا، توالت عليه بضعة أجيال من الآباء والأجداد.. كان كل منهم يتبادل وزوجته الحب، ويعتبران إنهما أسعد الأزواج. وكانت تشع من كل شيء، ومن كل ركن في هذا البيت، ذكريات عائلية طيبة نقية.. ولم أكد أضع قدمي فيه حتى شعرت بأن هذه الذكريات قد أصبحت ذكرياتي وصارت جزءًا من كياني..

وكانت تاتيانا سيمينوفنا قد أعدت هذا البيت ونسقته على الطريقة القديمة. ولست أستطيع أن أقول إن كل ما فيه كان جميلًا أو أنيقًا، ولكنه كان دون شك نظيفًا منظماً يوحي بالاحترام، ابتداءً من أدوات المائدة إلى الأطعمة والأثاث.. فكان الأثاث مرتبًا في الصالون في ذوق ونظام، وكانت الجدران مزينة بالصور، والأرضية تكسوها أبسطة الأسرة القديمة. وكان بالصالون الصغير بيانو قديم، وصوانان للملابس مختلفا الشكل، وأريكة، ومناضد مطعمة بالنحاس.. وكانت غرفتي الخاصة قد

أُعدت تحت إشراف السيدة تاتيانا سيمينوفنا وعنايتها، وتضم أجمل ما في البيت من قطع الأثاث. وكنت لا أجرؤ في أول الأمر على النظر إلى هذه الأشياء إلا بعين الخجل، ولكنها ما لبثت أن أصبحت عزيزة عليّ.. وكأننا أصدقاء!

وكنا لا نسمع صوتًا لحماتي في البيت.. وكان كل شيء فيه يسير في نظام تام وكأنه ساعة مضبوطة، على الرغم من أن البيت كان يضم عددًا كبيرًا من الناس. وكانوا جميعًا ينتعلون أحذية طرية لا كعب لها؛ لأن أصوات النعال وقرقعة الكعوب كانت أبغض الأشياء إلى تاتيانا سيمينوفنا! وكانوا جميعًا يرتعدون أمام السيدة العجوز، ولكنهم كانوا يؤدون واجبهم نحوي في رضا وسرور، ويتسابقون في سبيل خدمتي!

وكان خدم البيت يغسلون "أرضيته" بانتظام، وينظفون أبسطته في كل يوم سبت، ويرتلون التراتيل شكرًا لله في اليوم الأول من كل شهر، ويغمسون أيديهم في الماء المبارك.. وفي عيد ميلاد تاتيانا سيمنوفنا وعيد ميلاد ابنها سيرج- ثم في عيد ميلادي أنا الذي حل لأول مرة في الخريف- كانت تقام وليمة يُدعى إليها كل الجيران.. وكان ذلك يحدث دائمًا بنفس الطريقة، التي كان يتم بها منذ أقدم زمن تستطيع أن تعيه ذاكرة تاتيانا سيمينوفنا.

وكان زوجي لا يتدخل أبدًا في شيء من شئون البيت، وإنما كان يقنع بالعناية بشئون الزراعة والفلاحين، وكان يوليها رعاية خاصة.. فكان يستيقظ في ساعة مبكرة جدًا حتى أثناء الشتاء، إلى حد أنني لم أكن

أستطيع أن أراه قبل خروجه.. ثم كان يعود عادةً ساعة تناول الشاي، وكنا تتناوله على انفراد. وبعد أن نتحدث معها في شئون الزراعة وما يتعلق بها من مشاكل، كانت تتملكه– بصورة تكاد تكون دائمة– تلك الحالة النفسية المرحة الخاصة به، التي كنا نطلق عليها حالة "الانطلاق الفطري"..

وكثيرًا ما كنتُ أسأله عمّا فعله في الصباح، فكان يقص عليّ حينئذٍ أعمالًا جنونية تجعلنا نختنق من الضحك.. وكنت أطلب منه أحيانًا أن يقص عليّ قصة جادة، فكان يقصها عليّ وهو يغالب ابتسامة كانت تريد أن تقفز إلى شفتيه، وكنت أنظر إلى عينيه وحركات شفتيه فلا أفهم شيئًا مما كان يقول؛ لأنني كنت أتسلى فقط بالتطلع إلى عينيه والاستمتاع بصوته..

وكان يقول لي أحيانًا: "هيا يا كاتيا.. كرري لي ما كنت أقول!".. ولكنني كنت لا أستطيع أن أكرر له أي شيء!

***

كانت تاتيانا سيمينوفنا لا تظهر قبل العشاء، وتتناول الشاي على انفراد.. وكانت لا تبلغنا تحياتها، ولا تعبر لنا عن تمنياتها، إلا عن طريق سفراء.. ولذلك؛ فإنني كنت أُلاقي مشقة في أن أمنع نفسي من الضحك حينما كانت خادمتها الخاصة تأتينا. وقد عقدت ذراعيها على صدرها لتبلغنا في لهجة رزينة متزنة أن سيدتها أمرتها بأن تستفسر منّا عمّا إذا كنّا قد نمنا جيدًا وعن رأينا في الحلوى.

وكـان مـن النـادر أن نبقـى معًـا أنا وسـيرج حـتى تحـين سـاعة الغـداء فكنـت ألعـب أو أقـرأ وحـدي، وكـان هـو يكتـب أو يخـرج مـن جديـد.. ولكننا كنا نهبط إلى الصالون في تمام الساعة الرابعة للغداء، فكانت حماتي تخرج من غرفتها.. فيظهر حينئذٍ من حولها بعض النبلاء المساكين، ونفر من الحجاج الذين كان يقيم بالبيت اثنان أو ثلاثة منهم بصورة دائمة.

وفي كل يوم، وفقًا للتقاليد القديمة، كان زوجي يقدم ذراعه لوالدته ليذهب بها إلى غرفة المائدة، وكانت هي تطلب منه أن يقدم ذراعه الأخرى.

***

وكانت حماتي تتصدر المائدة.. وكان الحديث يتخذ صفة جدية متزنة ممزوجة بطابع يكاد يكون رسميًا، ولكن الكلمات التي كنت أتبادلها مع سيرج، كانت تحدث شيئًا من التنويع اللطيف في ذلك الجو الرسمي الذي كان يسود المائدة!

وبعد العشاء، كانت حماتي تجلس في الصالون في مقعد كبير وتأخذ في "تفتيح" صفحات الكتب الجديدة التي تكون قد وصلت إلى البيت، بينما كنا نحن نقرأ بصوتٍ عالٍ أو نذهب إلى الصالون الصغير ونجلس أمام البيانو.. ولطالما قرأنا كثيرًا أثناء هذا الوقت، ولكن الموسيقى كانت لا تزال متعتنا المفضلة.. وكانت تهز في قلبينا– في كل مرة– أوتارًا جديدة وتكشف لكل منّا شيئًا جديدًا عن الآخر. وحينما كنت أعزف الألحان المفضلة عند سيرج؛ فإنه كان يجلس على أريكة بعيدة وكنت لا أكاد ألمحه.. وكان يجتهد في إخفاء المشاعر، التي كانت تثيرها الموسيقى في نفسه

بدافع من الحياء.. ولكنني غالبًا ما كنت أترك البيانو في اللحظة التي كان لا ينتظر فيها مني ذلك على الإطلاق، وأسرع إليه وأنا أحاول أن أفاجئه وفي ملامحه آثار انفعاله، وأن أفاجئ كذلك بريقًا يكاد يكون سماويًا صادرًا من نظرته الشاردة، التي كان يحاول عبثًا أن يخفيها عني.

وكنت أعود لأقدم شاي المساء في الصالون الكبير، وكانت الأسرة تجتمع بكامل هيئتها حول المائدة من جديد. ولطالما اضطربت من هذه الجلسة الرسمية إلى جوار الموقد– ومن فوقه إناء الشاي– وكأننا في محكمة، كما كنت اضطرب من توزيع الأكواب والأقداح.. وكان يبدو لي على الدوام أنني لم أكن جديرة بعد بهذا الشرف، وأنني صغيرة السن أكثر مما ينبغي، وطائشة إلى الحد الذي لا أستطيع معه أن أتولى شئون موقد كبير كهذا، وأن أضع كوبًا فوق "صينية" "نيكيتا" وأضيف قائلة: "إنها من أجل "بيير إيفانوفيتش".. وهذه من أجل "ماري مينيشنا".. ثم أسأل كل واحد من الجالسين قائلة: "هل يكفي ما به من السكر؟" وأترك بعض قطع السكر بعد ذلك للخادم العجوز وللخدم الآخرين. وكان زوجي كثيرًا ما يقول: حسنًا.. حسنًا جدًا! إنك تقومين بدور سيدة كبيرة!" فكان ذلك يثير في نفسي مزيدًا من الخجل.

***

وبعد تناول الشاي، كانت حماتي تلعب الورق أو تكلف "ماري مينيشنا" بأن تقرأ لها فيه الطالع، وكانت تقبّل كل واحد منا بعد ذلك وتباركنا، فنذهب إلى الجناح المخصص لنا في البيت..

ومع ذلك، فقد كنا نتابع السهرة معًا على انفراد– في أكثر الأحيان– إلى ما بعد منتصف الليل، فكان ذلك أجمل وأحلى وقت يمر بنا.. كان سيرج يقص على ماضيه، وكنا نرسم الخطط ونضع المشاريع للمستقبل، كما كنا نتفلسف في بعض الأحيان ونناقش هذا الرأي أو ذاك.. وكنا نحاول أن نقول ما نقوله بغير جلبة أو ضوضاء حتى لا يسمع حديثنا أحد..

لقد كنت أعيش أنا وسيرج كهرباء في هذا البيت القديم الكبير، الذي كانت تجثم فيه على كل الصدور "تاتيانا سيمينوفنا" مع روح العهد القديم القاسية!

وكنت أشعر نحو حماتي بالاحترام، مقرونًا بشيء من الفزع، وكذلك كان شعوري نحو كل أهل البيت والخادمات المسنّات، ونحو الصور وقطع الأثاث.. كما كنت أشعر في نفس الوقت بأنني أنا وزوجي لسنا هنا في مكاننا تمامًا، وبأن علينا أن نلزم جانب الحذر ونحن نعيش في هذا البيت!

ولا زلت أذكر إلى اليوم ذلك النظام القاسي، وهذا العدد الهائل من الناس الفضوليين العاطلين بالوراثة، الذين كانوا يعيشون في بيتنا والذين كنت أحتملهم بصعوبة! ولكن هذا الجو نفسه كان يحيى حبنا المتبادل ويقويه، وكان كلٌّ منّا يحذر جهد طاقته من أن يبدي استنكاره لشيء في البيت.. وكنت أثور في بعض الأحيان من جراء هذا الهدوء وهذا التسامح، ومن جرّاء هذا النوع من عدم الاكتراث لكل شيء، وكنت أنعت مثل هذا السلوك بالضعف!

***

وذات يوم، أظهرت لزوجي ما أعانيه من ضيق فأجابني قائلًا: "عزيزتي كاتيا.. هل يستطيع المرء أن يبدي غضبه من شيء كائنًا ما كان بينما يكون سعيدًا مثلي؟ إه لأهون على المرء أن يتنازل للآخرين عن الكثير من حقوقه ورغباته- من أن يخضعهم لإرادته.. هذه هي عقيدتي منذ زمن طويل، كما أنني مقتنع بأنه ليس هناك موقف لا يستطيع المرء فيه أن يكون سعيدًا.. إن الأمور كلها تسير- بالنسبة إلينا- على خير وجه.. ولم أعد أعرف الغضب أو الانفعال.. وإنني أحس اليوم أنه ليس هناك شيء واحد يبعث على الضيق أو التذمر.. ولكنني أعتقد- برغم ذلك- إن "الأحسن عدو لما هو حسن".. أتصدقينني إذا قلت لك أن الخوف يتملكني حينما أسمع جرس الباب يدق، وحينما أتسلم خطابًا.. بل وفي كل صباح حينما أستيقظ.. وهو خوف ناتج عن خشيتي من أن يتغير أي شيء؛ إذ إنني أشعر أنه ليس هناك شيء يمكن أن يساوي اللحظة الحاضرة!".

والحق أنني كنت أصدق سيرج.. ولكنني كنت لا أفهمه، وكنت أجد نفسي في حالة طيبة، وأشعر أن كل شيء يسير كما كان ينبغي أن يكون، وإن هناك في أماكن أخرى أنواعًا أخرى من السعادة، ولكنها ليست أكبر من سعادتي وإن كانت تختلف عنها!

***

وانقضى شهران على هذا المنوال، ثم أقبل الشتاء فجأة ببرده وأعاصيره.. ودواماته.،وعلى الرغم من أن سيرج كان إلى جواري؛ فقد بدأت أشعر بأنني وحيدة، وبأن الحياة ليست إلا تكرارًا. رتيبًا، وبأنها لا

تقدم لي أو له أي جديد، وبأننا كنا – على العكس– كأننا نعود دائمًا إلى الوراء..

وأخذ سيرج ينشغل بأعماله أكثر مما كان يفعل من قبل.. وبدا لي مرة أخرى أنه كان هناك في قرارة نفسه شبه عالم خاص، كان لا يريد أن يشركني فيه!

وكان يثيرني منه صفاؤه الذي لا يمكن تعكيره.. وكنت أحبه كما كنت أفعل من قبل، كما كنت سعيدة بحبه كما كنت من قبل، ولكن حبي ظل جامدًا على حالته ولم يعد ينمو ويزداد.. كما كان هناك إلى جانب الحب شعور آخر أخذ يتسلل إلى نفسي، شعور جديد لا أعرفه كان يملئني بالاضطراب!

***

وكان قليلًا بالنسبة إليّ أن أستمر في حب رتيب بعدما شعرت بتلك السعادة الكبرى، وأنا أحبه لأول مرة.. فقد كنت في مجال المشاعر بحاجة إلى الحركة والمغامرة والتضحية بالنفس؛ إذ كان هناك في نفسي فائض من الطاقة لا يجد له متنفسًا في حياتنا الهادئة الرتيبة، وكانت هناك أيضًا انطلاقات من الحزن كنت أحاول أن أخفيها عنه وكأنها كانت سوءًا، واندفاعات من الحنان العنيف والمرح الذي كان يثير فزعه..

وكان سيرج يتابع ملاحظة حالتي النفسية، كما كان يفعل فيما مضى.. وأقترح على ذات يوم أن نرحل إلى المدينة، ولكنني طلبت منه ألا نذهب إليها وألا نغير شيئًا في نوع الحياة التي كنا نعيشها، فقد كنت سعيدة حقًا.. ولكنني كنت أتعذب وأنا أرى أن تلك السعادة لم

تأت لي معها بأي عمل أو تضحية، في الوقت الذي كنت أشعر فيه بكل قوى العمل والتضحية تذبل وتئن في نفسي!

وكنت أحبه، وأرى أنني كل شيء بالنسبة إليه.. ولكنني كنت أرغب في أن يرى الجميع حبنا، وأن يمنعني الناس من حبه، وأن أحبه بالرغم من ذلك.. لقد كانت نفسي ومشاعري تجدان مجالًا لإشباع رغباتهما، ولكن كان هناك مع ذلك شعور الشباب بالحاجة إلى الحركة، الذي كان لا يجد ما يشبعه إلى درجة كافية في حياتنا الهادئة!

لماذا كان يقول لي أننا نستطيع الذهاب إلى المدينة حينما كنت أرغب في ذلك؟ ولو أنه لم يقل لي ذلك فربما فهمت أن هذا الشعور، الذي كان يضنيني كان من جانبي خيالًا مفسدًا وخطًا وذنبًا..

وفي ذلك الحين، جال بخاطري- بطريقة لا إرادية – أنني كنت أستطيع أن أنتزع نفسي من الضيق، عن طريق الذهاب إلى المدينة.. وكان ذلك معناه- من جهة أخرى انتزاع سيرج من كل ما كان يحبه، فكنت أشعر حينئذٍ بالخجل، وكان من الصعب عليّ أن أتصور أنني أرغمه على هذه التضحية من أجلي..

كان الوقت يمر، والجليد يتراكم أكثر وأكثر إلى جوار جدران البيت.. وكنا بمفردنا دائمًا، ودائمًا كل منا في وجه الآخر، في حين أنه كان هناك في مكان آخر لا أعرفه- وبين الضوضاء والبهرج- جمهور يروح ويغدو وهو يلهو أو يقاسي دون أن يفكر فينا أو في حياتنا الخفية للغاية..

***

وكان أسوأ ما في الأمر بالنسبة إليّ، شعوري بأن سلسلة من العادات والتقاليد المتوارثة كانت تضيق الخناق على حياتنا كل يوم بقوة أكثر، وتصبها في قالب واضح المعالم، وإن شعورنا نفسه كان على وشك أن يستعبد ويخضع لقانون زمننا هذا الجامد الذي يسير دائمًا على وتيرة واحدة!

وكان علينا في الصباح أن نكون مرحين، وأن نبدي احترامنا للآخرين أثناء تناول الغداء، وأن نظهر حناننا في المساء.. وكنت أقول في نفسي: "تُرى هل ما أفعله خير؟".

أما هو فكان يقول: "إن ما يستحق الإعجاب حقًا هو أن يفعل المرء الخير وأن يعيش شريفًا" وكان الوقت لا يزال متسعًا أمامنا لنفعل ذلك، ولكن كانت هناك أشياء أخرى لا أقوى على القيام بها سوى اليوم فحسب..

ولم يكن ذلك ما يلزمني لمواجهة حالتي النفسية.. وإنما كان يلزمني الكفاح، وأن يكون الشعور مرشدًا لي في الحياة، لا أن توجه الحياة شعوري. وكنت أتمنى أن أقترب من حافة الهاوية ثم أخاطب سيرج قائلة: "لم يعد أمامي غير خطوة واحدة وأتردى في الهاوية.. ولم تتبق سوى حركة واحدة وأسقط هالكة".. وكنت أتصور أن وجهه سوف يشحب حينذاك، وسوف يمسك بي بيديه القويتين، ثم ينتزعني من الحافة، ويحملني معه بعد ذلك إلى حيث يشاء..

وكانت حالتي النفسية هذه تؤثر على صحتي حتى تعبت أعصابي.

وذات صباح، أحسست بأن حالتي أكثر سوءًا من المعتاد. وعاد سيرج من عند مأمور الشرطة بمزاج سيئ للغاية، ولم يكن هذا يحدث له إلا نادرًا.. وحينما لاحظت ذلك سألته عن السبب، ولكنه لم يرد أن يخبرني بشيء، واكتفى بأن قال إن الأمر لا أهمية له.

***

وفيما بعد، علمت أن مأمور الشرطة قد استدعى طائفة من فلاحينا وطلب منهم شيئًا غير مشروع، ولما لم يقبل زوجي هدده المأمور. ولكن زوجي لم يستسلم لهذا التهديد.. وكان يرى أن الأمر يدعو إلى السخرية، فلم يشأ أن يحدثني عنه، ولكن خُيّل إليّ أنه لم يشأ أن يخبرني بشيء لأنه كان ينظر إليّ كطفلة لم تنضج بعد النضوج الكافي.

وابتعدت عنه في صمت دون أن أنطق بكلمةٍ واحدة.. فذهب غاضبًا إلى غرفة مكتبه، وأغلق على نفسه الباب.. وجلست أنا على الأريكة وأنا أشعر برغبة في البكاء.

ورحت أحدث نفسي قائلة: "لماذا يلحُ في إذلالي بهدوئه هذا؟ ولماذا يعتبر الحق في جانبه دائمًا؟ أليس من حقي– بدوري– أن أشعر بالضيق والفراغ؟ وأن أعيش وأتحرك وألا أبقى دائمًا في نفس المكان أحيا حياة رتيبة كل ما فيها يجري على وتيرة واحدة؟ إنني أريد أن أسير إلى الأمام كل يوم، بل وكل ساعة.. إنني أريد التجديد، بينما هو يحب أن يبقى في مكانه وإن يبقيني معه! ومع ذلك، فمن السهل عليه أن يرضيني! فهو ليس في حاجة إلى أن يصحبني إلى المدينة كي يرضيني.. فقط، يجب عليه

أن يكون مثلي محبًا للتغيير والحركة والتجديد، وألا يحاول تحطيم نفسه أو الضغط عليها.. أي يجب– بكل بساطة– أن يعيش، وهو نفسه ينصحني بذلك، ولكنه لا يفعله..

وأحسست بالدموع تملأ عيني، وبقلبي ينقبض، وغضبي يزداد عليه.. ووجدتني أندفع إليه في مكتبه، فرأيته جالسًا يكتب. ولما سمع وقع خطواتي، التفت نحوي وظل ينظر إليّ لحظة في هدوء وعدم اكتراث، ثم استأنف الكتابة..

ولم تعجبني نظرته.. وبدلًا من أن أتقدم نحوه، مكثت إلى جوار مكتبه، وفتحت كتابًا وأخذت ألقي نظرة على صفحاته. وحينئذٍ إلتف نحوي من جديد وهو يقول:

–كاتيا.. إنكِ على غير عادتك.

ولم أجب إلا بنظرة باردة.. فهزّ رأسه وابتسم في شيء من الخجل، ولكنني– لأول مرة– لم أجب على ابتسامته بابتسامة مثلها، واكتفيت بأن قلت أسأله:

– ماذا كان بكَ هذا الصباح؟ لماذا لم تقل لي شيئًا؟

فقال:

– إنه شيء تافه! مضايقة صغيرة. ومع ذلك، لست أستطيع أن أقصّ عليك خبرها الآن. لقد بعثوا باثنين من الفلاحين إلى المدينة..

ولكنني قاطعته قائلة:

– ولماذا لم تقل لي ذلك حينما سألتك؟

فقال:

– كان من الممكن أن أقول لك حينئذٍ شيئًا سخيفًا.. فقد كنت غاضبًا..

– كان يجدر بكِ أن تخبرني بذلك حينئذٍ..

– لماذا؟

فقلت أسأله بدوري:

– ولماذا تعتقد دائمًا إنني لا أستطيع مساعدتك في أي شيء.

فوضع قلمه جانبًا ثم قال:

– لا شيء من هذا القبيل.. فأنا لا أستطيع أن أعيش بدونك، وأعتبرك عونًا لي في كل الأمور، بل ولا أعتقد أن شيئًا يمكن أن يتم بدونك..

وأطلق ضحكة صغيرة، ثم عاد يقول:

– لقد جئت في الوقت المناسب تمامًا! إنني أعيش لك وحدك.. ولا شيء أراه جميلًا هنا ألا بوجودك.

فقلت بلهجة أثارت دهشته:

– أعرف ذلك.. إنك تعتبرني طفلة يجب أن يعمل الإنسان على

ترضيتها وتهدئتها.. كلا.. إنني لا أريد هذا الهدوء.. كفاني هدوءًا!

فاندفع يقول مقاطعًا، كما لو كان يخشى أن يتيح لي فرصة لأقول كل شيء:

– هيا إذن.. فكرى في المشكلة قليلًا وأخبريني برأيك..

فقلت في شيء من الحدة:

– لم أعد أريد ذلك..

وأحسست برغبة في أن أعكر صفو هدوئه، على الرغم من إنني كنت أريد أن أسمع منه كل شيء، فأضفت قائلة:

– إنني أريد أن أعيش مثلك تمامًا، لا أن أعيش على هامش الحياة..

وارتسمت على ملامحه إمارات عنف وألم كبير، فعدت أقول:

– لا أريد أن أعيش معك على قدم المساواة..

ولكنني لم أتم كلامي من فرطه ما رأيت على وجهه من إمارات الأسى، بينما استطرد يقول بعد لحظة من الصمت:

– وفي أي شيء لا تعيشين معي على قدم المساواة، إن مشكلة الفلاحين ومأمور الشرطة تخصني وحدي وليست من شأنك!

فقلت:

– نعم، ولكن الأمر لا يتعلق بهذه المشكلة فحسب..

فأضاف بقول:

– حاولي أن تفهميني.. إنني أعرف أن الهموم تؤلمني وتؤلمك في نفس الوقت.. وأعرف كذلك أنني أحبك، ولذا أحاول أن أبعد عنك الهموم.. إن حياتي هي حبي لك.. والأمور تسير هكذا، فلا تمنعيني إذن من أن أعيش..

فقلت دون أن أنظر إليه:

– إنك دائمًا على حق..

وكنت أحس بصدمة لأن نفسه كانت صافية وهادئة هذه المرة أيضًا، بينما كانت نفسي تجيش بالغضب وبشعور أقرب إلى الندم.

قال:

– كاتيا! ماذا بكِ؟ إن الأمر لا يتعلق بمعرفة الجانب الذي معه الحق، وإنما يتعلق بشيء مختلف تمامًا.. لماذا تحملين عليّ؟ أرجو ألا تجيبي في الحال.. فكري أولًا ثم صارحيني برأيك.. إنك غاضبة مني، ولا شك إنك محقة في ذلك.. ولكن أرجو أن تعرفيني بذنبي..

وكيف كنت أستطيع أن أخبره بكل ما كان يكمن في قرارة نفسي؟ لقد شعرت باضطراب كبير إذ أدركت أنه تسلل بسرعة إلى ما

يدور في ذهني، ووجدت نفسي أمامه- من جديد- كطفلة لا تستطيع أن تفعل شيئًا إلا ويفهمه..

قلت:

- إنني لست ضدك.. فقط أشعر بالضيق وأريد ألا أتضايق.. ولكن ها أنتذا تقول إن الأمور ينبغي أن تكون هكذا.. وأنت على حق مرة أخرى..

ونظرت إليه وأنا أقول ذلك، وأدركت إنني قد بلغت هدفي؛ إذ رأيت صفاءه يختفي والفزع والأمل يرتسمان على وجهه..

وقال يحدثني من جديد، وقد بدت في صوته رنة اضطراب:

- كاتيا.. إننا لا نمزح الآن.. إن مصيرنا يتقرر في هذه اللحظة.. إنني أطلب منك ألا تجيبي بشيء وأن تنصتي.. لماذا تعذبينني هكذا؟

وقاطعته قائلة في برود، وكأنني لست أنا التي أتكلم وإنما شيطان يتحدث بفمي:

- لا تقل أكثر مما قلت.. إنك على حق.

وأجهشت بالبكاء، فشعرت بوطأة الأسى تخفّ عن قلبي، وكان سيرج يجلس في صمت إلى جواري.. كنت مشفقة عليه، خجلة من نفسي، حزينة لما فعلت. ولم أكن ألتفت إليه، ولكن لابدّ أنه كان ينظر إلي في تلك اللحظة إما بعين الريبة أو القسوة. والتفت كي أراه، فوجدت عينيه الجميلتين الحنونتين تنظران إلي في إمعان وكأنهما تطلبان الصفح.

وحينئذٍ أمسكت بيده وأنا أقول:

– اغفر لي.. لست أدرى أنا نفسي ما كنت أقوله ..

– نعم ولكنني أعرف ما كنت تقولين، إن ما قلت هو الحق.

فقلت أسأله:

– ماذا؟ ماذا تقول؟

– أقول إن علينا أن نذهب إلى بطرسبرج؛ إذ لم يعد لدينا ما نفعله هنا.

– سأفعل ما تريد..

وأخذني بين ذراعيه وقبلني، ثم قال:

– هل تغفرين لي؟ لقد كنت مخطئًا في حقك.

***

وأثناء السهرة عزفت له الموسيقى لمدة طويلة، وكان يروح في الغرفة جيئة وذهابًا وهو يهمس بشيء، وكانت هذه عادية. وكثيرًا ما كنت أسأله عما يتمتم به، وحينئذٍ كان يكرر لي بالضبط ما كان يهمس به، وقد بدت عليه إمارات تفكير عميق. وفي معظم الأحيان، كان يهمس بأبيات من الشعر أو بعبارات لا مغزى لها.. ولكنني كنت أتعرف على حالته النفسية من خلال هذه "السخافات"، وقلت أسأله مرة أخرى:

– بم تتمتم اليوم؟

وبعد أن فكر قليلًا، وقف في مكانه ثم أجاب وهو يبتسم ببيتين من شعر "ليرمونتوف":

– هذا المجنون يثير العاصفة..

متوهمًا أن العاصفة يمكن أن يسود فيها السلام..

وفكرت أقول لنفسي: "حقًا إنه أكثر من رجل.. أنه يرى كل شيء، فكيف لا أحبه إذن؟ "

ونهضت وأمسكت بيده.. وأخذت أذرع أرض الغرفة معه وأنا أزن خطاي على خطاه..

وقال وهو يبتسم:

– حسناً!

فقلت بدوري:

– حسنًا!

ولست أدري أي حماس قد غمرنا.. إذ لم يكد ينقضي أسبوعان حتى كنا قد بلغنا مدينة بطرسبرج قبل الأعياد!

الفصل السابع

كـان وصـولنا إلى مدينـة بطرسـبرج، والأسـبوع الـذي قضـيناه في موسكو، وزيارتنـا لأسرته وأسرتي، والاستقرار في الشـقة الجديـدة، ورؤيـة مدينة جديدة ووجوه جديدة.. كان كل ذلك بالنسبة إلينا أشبه بالحلم.. نعـم، كانـت هـذه كلهـا أشـياء مرحـة متنوعـة.. وكـان وجـود سـيرج وحبـه يكسانها طابعًا دافئًا مشرقًا، حتى بدت لي حياة الريف الهادئة كشيء بعيد مغمور في العدم..

ودهشـت كثـيرًا حينمـا اسـتقبلني الجميـع- أقـارب وغـرباء- برقـة ولطف، بـدلًا من هذه الكبرياء المتعالية وذلك البرود الذي كنت أتوقعه من الطبقة الراقية، حتى خُيِل إليّ أن الجميع لا يفكرون إلا في. واكتشفت كذلك أن زوجي يعرف كثيرًا من شخصيات الطبقة الراقيـة، ولم يكـن قـد حـدثني عـن ذلـك أبـدًا. وكثيرًا ما كنت أسمعه ينطق بأحكام قاسية على الكثيرين منهم.. وكان هذا يثير دهشتي وغضبي لأنـي كنت أجدهم أناسًا طيبـين للغايـة. ولم أكـن أسـتطيع أن أفهـم لمـاذا كـان سـيرج يعامـل هـؤلاء الناس في جفاء، ولماذا كان يتجنب مخالطة الكثيرين منهم، رغم إنني كنت أرغب كثيرًا في مخالطتهم. وكـان يخيل إليّ أن من الأفضـل أن يعرف المرء أناسًا من الطبقة الراقية.

***

كان سيرج قد قال لي قبل رحيلنا من الريف: "لنفكر قليلًا ونرى كيف سنرتب الأمور.. إننا هنا نعد من كبار الأثرياء، وسنكون هناك بعيدين كل البعد عن الثراء. ولذا ينبغي ألا نمكث في المدينة بعد عيد الفصح، وألا نخالط أبناء المجتمع الراقي كي لا نقع في ورطة مالية.. ولن أرضى من أجلك..

وكنت قد قاطعته قائلة: "ولماذا نخالط المجتمع الراقي؟ يكفي أن نذهب لمشاهدة الأوبرا والمسرحيات والاستماع إلى الموسيقى الرفيعة وزيارة الأهل. وقبل عيد الفصح، نكون قد عدنا إلى الريف".

ولكننا ما إن وصلنا إلى مدينة بطرسبرج، حتى كان هذا الكلام الجميل قد طواه النسيان.. لقد دفعت فجأة إلى عالم جديد سعيد، وأدارت كل تلك المسرات رأسي. وظهرت أمام عيني كثير من الأشياء التي لم تثر اهتمامي من قبل، حتى أنني أنكرت كل ماضي وقلبت كل خططي رأسًا على عقب، بقفزة واحدة، ودون أن أعي ذلك!

وكنت أفكر قائلة: "حقًا لم يكن أي شيء قبل هذه الفترة إلا نوعًا من المزاح الذي لا معنى له.. أما الحياة الحقيقية فهي هذه الحياة الجديدة، وماذا إذن سيكون من أمر المستقبل؟".

***

لقد اختفت الهموم والأحزان التي كانت تلاحقني في الريف، فجأة وفيما يشبه السحر.. ومن ناحية أخرى أصبح حبي لزوجي أكثر هدوءًا، فضلًا عن أن فكرة فتور حبه لي– عمّا كان في الماضي– لم تطرأ لي على

بال. لقد كان يفهم بسرعة كل أفكاري، ويقاسمني كل مشاعري، ويحقق جميع رغباتي..

ولست أدري إذا كان صفاؤه الذي لا يقوى أحد على تعكيره قد اختفى هنا، أم أن هذا الصفاء لم يعد يثير غضبي كما كان في الماضي. وكنت أشعر أنه هنا يتمتع بوجودي إلى جواره بالإضافة إلى حبه القديم الذي يكنه لي دائمًا. وكثيرًا ما كان يحدث لي بعد إحدى الزيارات– أو بعد تعرفي بشخصية جديدة– أن أرتعد خوفًا من أن أكون قد ارتكبت حماقة ما أو قصرت في واجبي كربة بيت، وحينئذٍ كان يقول: "هيا يا ابنتي! تشجعي.. لقد كنت رائعة للغاية".

وبعد وصولنا إلى بطرسبرج بمدة وجيزة، كتب خطابًا لوالدتها وطلب مني أن أكتب لها شيئًا فيه، ولكنه لم يشأ أن يطلعني على ما كتبه، فادعيت أن لي الحق في أن أقرأ الخطاب، وحينئذٍ تركني أفعل ذلك. وكان قد كتب إلى والدته يقول: "إنك لا تعرفين كاتيا حقًا، وأنا نفسي لم أعد أعرفها. فمن أين تأتت لها هذه الثقة اللطيفة في نفسها وفي المجتمع الراقي، وهذا السلوك الرقيق المحبوب؟ كل ذلك وهي لم تزل بسيطة وطيبة دائمًا. إن الكل مسحور بها ولا أكفّ عن الإعجاب بها بدوري، وسيزداد حبي لها لهذا السبب".

***

ولقد أثار ذلك في نفسي كثيرًا من الراحة والسرور حتى خُيِل إلي أن حبي له قد ازداد أيضًا. وكان نجاحي عند جميع معارفنا شيئًا لا أتوقعه..

فكانوا يخبرونني بأنني قد أعجبت عمي بصفة خاصة، وبأن إحدى عماتي تكاد تجن بي من فرط الإعجاب. وكان يحدث لي أن يقول لي أحدهم أن مدينة بطرسبرج ليس فيها سيدة مثلي، بينما تؤكد لي إحداهن أن في وسعي أن أصبح بسهولة أشهر سيدة في المجتمع الراقي..

وكانت هناك ابنة لإحدى خالات زوجي تحبني حبًا جمًا، وتغدق عليّ أكثر أنواع الإطراء إدارة لرأسي، وهي سيدة من أرقى سيدات المجتمع تُدعى الأميرة "د".. وحينما اقترحت عليّ هذه السيدة لأول مرة أن أذهب معها إلى حفل راقص– وكان هذا أمام زوجي– التفت سيرج نحوي وهو يبتسم ابتسامة ماكرة لا تكاد تلحظ، وسألني عمّا إذا كنت أرغب في الذهاب إلى هناك، فأومأت برأسي علامة الإيجاب، وأنا أحس بالدم يندفع غزيرًا إلى وجهي.. وحينئذٍ عقب قائلًا وهو يضحك في سذاجة:

– إنها تبدو كمجرم يعترف برغبته!

فقلت وأنا ابتسم بدوري:

– ألم تقل لي إننا لا يجب أن نخالط المجتمع الراقي لأنك تكره ذلك؟

فقال:

– إننا سنذهب إلى هناك إذ اكنتِ شديدة الرغبة في ذلك ..

– كلا.. من الأفضل ألا نذهب..

ولكنه عاد يسأل قائلًا:

– هل أنت شديدة الرغبة في ذلك؟

ولم أجب بشيء، فاستمر سيرج يقول:

– إن من أكثر الأمور سوءًا في الحياة أن يتشبه المرء بالمجتمع الراقي.. ولكننا سنذهب إلى هناك على أية حال.. نعم، لابدّ أن نذهب إلى هناك..

فقلت:

– أصارحك القول بأنني أرغب في الذهاب إلى هناك أكثر من أي شيء آخر أرغب فيه في هذا العالم.

***

وذهبنا إلى الحفل.. وهناك غمرني سرور فاق كل حد. وبدا لي في هذا الحفل أنني المركز الذي يدور في فلكه كل شيء، وأن هذه القاعة الكبيرة، التي تسطع فيها الأنوار، خاصة بي وحدي.. وأن الموسيقى لا تعزف إلا لي، والجمهور لا يتجمع إلا من حولي. كان الجميع، ابتداءً من خادمتي الخاصة حتى الراقصين والشيوخ يريدون أن يقولوا لي أنهم قد فقدوا صوابهم بسببي. وقالت ابنة خالة زوجي إنني لا أشبه النساء الأخريات في أي شيء، وإنما أتمتع بشيء فريد في نوعه، يذكّر المرء ببساطة الريف وسحره. والواقع أن نجاحي قد أثار غروري حتى أنني صارحت زوجي برغبتي في الذهاب مرّة أخرى إلى حفلتين أو ثلاث حفلات خلال هذا الشتاء.

وأضفت أقول وأنا أغالط ضميري: "وذلك كي أشبع من هذه الحفلات دفعةً واحدة". ووافق زوجي على ذلك، وكان يأخذني إلى هناك

أول الأمر وهو مسرور بنجاحي، وكان يتناسى أو ينكر ما كان يدعي من قبل أنه مبدأ بالنسبة إليه. ولكنه ما لبث أن بدأ يشعر بالتعب والضيق من هذه الحياة.. ولم يكن ذلك واضحًا بما فيه الكفاية، فكنت لا أدرك سر هذه النظرة اليقظة الجادة التي يوجهها إليّ أحيانًا..

كنت نشوى بهذا الحب والإعجاب اللذين أثرتهما في نفوس عدد كبير من الغرباء.. وقد أسكرني هذا العبير العبق، عبير كل جديد أرتشفه هنا لأول مرة..

وكان تأثير زوجي الروحي الذي يسيطر عليّ، ويكتم أنفاسي بعض الشيء، قد تلاشى فجأة. وكان يحلو لي أن أبدو معه وسط هذا المجتمع ونحن على قدم المساواة.. بل وأن أشعر أنهم يضعونني في مكانة أعلى من مكانته. ولم أستطع أن أدرك أنه كان ينظر إليّ – وأنا أتمتع بهذه الحياة– بعين غير راضية. وكنت أحس بشعور من الرضا والكبرياء ينبثق في نفسي حين أدخل إلى حلبة الرقص وكل الأنظار متجهة نحوي، وحينئذٍ أراه يتركني ليندسَ بين الجمهور الذي يرتدي ثياب السهرة السوداء، فيخيل إليّ أنه يريد أن يعلن على الملأ حق الملكية الذي يتمتع به على شخصي، إلا أنه يريد الهرب مني. فإذا وقع بصري على وجهه المتجهم في مؤخرة القاعة، قلت في نفسي: "فلينتظر حتى نعود إلى المنزل، وسوف يرى لمن كنت أحاول أن أكون لامعة جميلة.. حينئذٍ سوف يعرف من ذا الذي أحبه أكثر من أي مخلوق آخر يحيط بي هنا". والواقع أنني لم أكن فرحة بنجاحي إلا من أجله وأيضًا لأنه كان يضحي من أجلي. ولكن كان هناك شيء يمكن أن يعرضني للخطر، وهو أن أحد الذين كانوا يقابلونني في

هذا المجتمع كان مندفعًا نحوي، الأمر الذي كان يثير غيرة زوجي. وكان سيرج يثق في كلّ الثقة، ويبدو هادئًا غير مكترث. أما بالنسبة لهؤلاء الشبان؛ فقد كانوا جميعًا لا قيمة لهم في نظري بالمقارنة إلى زوجي، حتى أن هذا الخطر- وهو الخطر الوحيد الذي كان يبدو لي أن من الممكن أن أواجهه في حياة المجتمع الراقي- كان لا يخيفني على الإطلاق.. وعلى الرغم من ذلك، كنت أحس بنوع من السرور والغبطة بسبب هذا الاهتمام، الذي كان يبديه نحوي كثير من الناس..

وذات مرة قلت لزوجي بعد العودة من إحدى الحفلات الراقصة: "لقد لاحظت إنك كنت تتحدث بحماس مع السيدة "ن"..".

قلت ذلك وأنا أهدده بإصبعي، وكانت هذه السيدة من أكثر سيدات المجتمع الراقي في مدينة بطرسبرج شهرة، وكان زوجي قد تحدث معها طويلًا بالفعل في تلك الليلة. والواقع إنني كنت أريد بذلك إثارة غيظه، فقد كان في هذه اللحظة صامتًا ومتضايقًا بعض الشيء..

وأجابني قائلًا- وهو يقطب حاجبيه- كما لو كان يشعر بألم جسماني:

- لماذا تقولين لي مثل هذه الأشياء؟ إن مثل هذا الكلام لا يليق بكِ وإنما بالنساء الأخريات.. دعي هذا الحديث يا كاتيا لأنه يمكن أن يفسد الوئام الجميل الذي يسود حياتنا، ولا زلت آمل أن يعود الوفاق بيننا..

وأخلد لحظة إلى الصمت، ثم أضاف يقول:

– هل يمكن أن يعود هذا الوفاق يا كاتيا؟

فقلت وأنا مقتنعة تمامًا بما أقول:

– إن هذا الوفاق لم يفسد، ولن يفسد أبدًا..

فعاد يقول:

– ليسمع الله منك ذلك.. ولكن.. أين الوقت كي نعود إلى الريف؟

كانت هذه هي الفرصة الوحيدة التي حدثني فيها على هذا النحو وكان يبدو لي أن الأمور تسير دائمًا على خير ما يرام، وكنت من ناحيتي مرحة ومسرورة للغاية!

وحينما كنت أرى الضيق باديًا على وجهه، كنت أواسي نفسي بأن أقول إنني قد تضايقت من أجله مدة طويلة في الريف. وإذا حدث وطرأ بعض التغيير على علاقتنا، كنت أطمئن نفسي بأن سحر علاقتنا سيعود كاملًا حين نصبح مرة أخرى بمفردنا– خلال الصيف– في منزلنا بنيكولسكي..

وهكذا انقضى الشتاء دون أن أشعر بمرور الوقت، وبقينا في مدينة بطرسبرج برغم إننا كنا نعتزم الإسراع بالعودة للريف.

***

وفي يوم الأحد التالي لعيد الفصح، كنا نستعد للرحيل بعد أن انتهى زوجي من شراء كل الهدايا والحاجات اللازمة لحياتنا في الريف. وكانت

الحقائب معدة.. وأصبح زوجي مرّة أخرى في أقصى حالات مرحه وسروره..

وفي هذه اللحظة، دخلت علينا ابنة خالة زوجي فجأة، وطلبت منّا أن نمد إقامتنا حتى يوم السبت لنتمكن من حضور حفل الكونتيسة "ي". وأخبرتني بأن هذه الكونتيسة سبق أن وجهت إليّ الدعوة عدة مرّات، وأن الأمير "م" الموجود حاليًا في بطرسبرج قد أظهر أثناء الحفلة الراقصة الأخيرة رغبة كبيرة في التعرف إليّ، وأنه سيحضر إلى حفل الكونتيسة خصيصًا من أجل ذلك، وأنه يقول في كل مكان إنني أجمل سيدة في روسيا، وإن كل أهل المدينة يجب أن يذهبوا إلى هذا الحفل.. وباختصار، فإنه من غير اللائق ألا أذهب إلى هذا الحفل!

كان زوجي يقف في الناحية الأخرى من غرفة الجلوس، وكان يتحدث مع شخص لا أعرفه.. واستمرت ابنة الخالة تقول لي:

– هل ستحضرين إذًا يا كاتيا؟

فقلت في تردد وأنا أنظر ناحية زوجي:

– لقد كنا نريد أن نعود إلى الريف بعد غد..

والتقت عيناي بعيني زوجي، فالتفت إليّ في حركة عنيفة.

وقالت ابنة الخالة:

– سأقنعه بالبقاء، وسوف نذهب يوم السبت إلى الحفل لندير رءوس الحاضرين.. أليس كذلك؟

فقلت وقد بدأت أستسلم:

– إن هذا خليق بأن يربك كل مشروعاتنا، خاصة وأننا انتهينا من إعداد متاعنا..

وحينئذٍ قال زوجي من مكانه، بلهجة غاضبة حاسمة لم اسمعها منه أبدًا من قبل:

– من الأفضل أن تذهب مساء اليوم لتقدم تحيتها واعتذارها للأمير!

وصاحت ابنة الخالة تقول في سخرية:

– ها هو ذا يغار الآن.. إنها أول مرة أراه فيها هكذا. إنني لا أحثها على ذلك من أجل الأمير فحسب يا سيرج ميخايلوفيتش، إنما من أجلنا جميعًا.. فهذا هو رأي الكونتيسة "ي" التي نبلغكما بدورها رجاءها في أن تحضرا الحفل..

فاختتم زوجي حديثه قائلًا في برود:

– إن الأمر يتعلق بزوجتي..

غادر سيرج الغرفة، وهو مضطرب أكثر من المعتاد، وجعلني هذا أتألم ولا أعطي ردًا لابنة الخالة. وحينما رحلت، لحقت به فوجدته يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، ولم يرني أو يسمعني وأنا أدخل على أطراف أصابعي.

وقلت في نفسي وأنا أنظر إليه: "لا شك أنه يتمثل الآن ببيت نيكولسكي العزيز، وتخيل قهوته التي يتناولها كل صباح في غرفة الجلوس

الباهرة الضوء، وحقوله وفلاحيه، وكذا طعام عشاءه والسهر بالليل".

***

وصممت في نفسي على أن أترك كل الحفلات الراقصة، وجميع الأمراء الموجودين في الكون، كي أرى من جديد مرحه ومداعباته اللطيفة. ورغبت في أن أخبره بأنني لن أذهب إلى هذا الحفل، وأنه لم تعد لديّ أية رغبة في الذهاب إلى هناك. وفي هذه اللحظة، التفت فجأة إلى الوراء.. فلما وقع بصره على قطب جبينه، وتغير تعبير وجهه الحالم الجميل تمامًا، وحل محله تعبير جديد ينمّ عن حكمة وفهم لنفسيتي، وهدوء يمتزج بنوع من الحماية. ولم يكن يريد أن يكشف عن طبيعته الإنسانية الضعيفة، وكأنه يريد أن يبقى في نظري نصف إله..

التفت إلى زوجي، وقال في هدوء وعدم اكتراث:

– ماذا بكِ يا صديقتي؟

ولم أجب.. فقد شعرت بالغضب لأنه يخفي ما في دخيلة نفسه عني، ولا يريد أن يبقى في عيني على طبيعته التي أحبها..

وعاد يسألني قائلًا:

– هل تريدين أن تذهبي إذن إلى هذا الحفل؟

– لقد كان لدي رغبة في ذلك، ولكن يبدو أن الأمر لا يروق لك.

وصمت لحظة ثم أضفت أقول:

– فضلًا عن إننا قد حزمنا كل متاعنا..

فقال بلهجة باردة لم أسمعها منه قط من قبل:

– إنني لن أرحل قبل يوم الثلاثاء.. وسآمر بفتح الحقائب..

وبعد ذلك لن نرحل إلا حين تشائين، ويمكنك أن تتفضلي بالذهاب إلى الحفل، أما أنا فلن أرحل.

وأخذ يسير في الغرفة بخطى مضطربة.. ودون أن ينظر إليّ، وكانت هذه عادته حين يتعرض لأزمة نفسية..

وقلت له وأنا أعترض طريقه، متابعةً إيّاه بعيني:

– لست أفهم حقًا.. لماذا تحدثني بهذه اللهجة الغريبة؟ إنني على استعداد تام لأن أضحي من أجلك بهذه المتعة، ولكن ها أنت ذا تلحّ عليّ في الذهاب إلى الحفل بسخرية لم أعهدها فيك من قبل!

فقال وهو يضغط على كلماته:

– حسنًا! إنك تضحين، وأنا أضحي أيضًا، ولا شيء أفضل من ذلك! إنه سباق للتضحية.. ويخيل لي أن هذا ما يمكن أن نسميه سعادة الأسرة!

***

كانت تلك هي أول مرّة أسمع فيها الكلمات تخرج من فمه بمثل هذه القسوة والسخرية.. ولم أتأثر لسخريته، أو أذعر من قسوته، بل على العكس أثارت قسوته غضبي؛ فأردت أن أبادله القسوة بمثلها.. أهذا

زوجي الذي كان على الدوام عدوًا لدودًا لكل حديث جاف في علاقتنا، والذي كان دائمًا صريحًا معي؟ ولماذا يحدثني بمثل هذه اللهجة؟ لأنني أردت أن أضحي من أجله بسروري الذي لا أتصور سرورًا آخر يفوقه؟ لأنني أدركت مبلغ حبي له في نفس الوقت الذي كانت تراودني فيه فكرة الذهاب إلى الحفل؟ لقد كان يتهرب من البساطة والصراحة في الوقت الذي كنت أنشدهما!

قلت له وأنا أتنهد:

- لقد تغيرت كثيرًا.. ما ذنبي في نظرك؟ إنها ليست هذه الحفلة، وإنما خطأ ما قديم يملأ قلبك بالثورة عليّ.. لمَ إذًا لا تصارحني بكل ما يعتمل في قلبك؟ لقد كنت فيما مضى لا تخشى الصراحة مثلما تخشاها الآن.. تكلم بوضوح.. ماذا تحمل في نفسك ضدي؟

وكنت وأنا أقول ذلك استجمع ذكرياتي، وأنا أشعر بامتنان دفين في نفسي؛ لأنه لم يكن له الحق في أن يوجه إليّ أي لوم بالنسبة لهذا الشتاء مهما كان ذلك الذي سيقوله.

وتقدمت حتى منتصف الغرفة كي يضطر إلى المرور من جواري، ونظرت إليه وأنا أفكر قائلة: "لا شك أنه سيقترب مني ويقبلني، ثم ينتهي كل شيء".

جالت هذه الفكرة بخاطري.. وكان مما يحز في نفسي إنني لم أستطع أن أبرهن له على خطئه، ولكنه توقف عن المسير عند طرف الغرفة،

وقال وهو يرمقني بنظره:

– ألا زلتِ دائمًا لا تفهمين؟

فقلت:

– كلا..

فقال:

– ومع ذلك، فكيف أقول لكِ هذا؟ إنني أحس لأول مرة ببشاعة ما أشعر به، ولكنني لا أستطيع أن أتجنب ذلك..

وقطع كلامه.. ويبدو أن الفزع قد أصابه من جرّاء لهجته المجردة من الذوق. وقلت أسأله ودموع الغيظ تكاد تطفر من عيني:

– ماذا تريد أن تقول؟

فقال على الفور:

– إنني أحس بالبشاعة والاشمئزاز.. لأنك، بعد أن يجدك الأمير جميلة، قد ترغبين في الجري أمامه وتنسين نفسك وكرامتك كامرأة. وأنت لا تريدين أن تفهمي ما يحس به زوجك؛ لأنك لست في مكانه، ولأنك لا تشعرين بكرامة نفسك.. بل هناك ما هو أكثر من ذلك بكثير، فأنتِ تصرحين لزوجك بأنكِ تريدين أن تضحي من أجله بنفسك.. وكأنك تقولين له: "إن أكبر سعادة بالنسبة إليّ هي أن أظفر بإعجاب صاحب السمو، ولكنني أضحي بذلك من أجلك".

كان كلما تكلم تزداد نبرات صوته عنفًا وحماسًا، حتى أصبح صوته يدوي بسخرية لاذعة وقسوة عنيفة. ولم أكن قد رأيته من قبل في هذه الحال، بل ولم أكن أنتظر قط أن أراه هكذا.. فغلى الدم في عروقي وأحسست بالخوف. ولكنني في الوقت نفسه شعرت بأن كبريائي قد جرحت وأهينت.. وبرغبة في الانتقام منه، قلت:

– تكلم.. لقد كنت أنتظر هذا الانفجار منذ وقت طويل..

واستمر في حديثه قائلًا:

– لست أدري ماذا كنت تنتظرين.. وأنا نفسي كنت أتوقع حدوث ما هو أسوأ من ذلك. إنني أراك وأنت تنغمسين كل يوم في هذا الوحل والفراغ، وهذا المجتمع السخيف والبذخ، وكنت أتوقع.. كنت أتوقع اليوم ما يملأ نفسي بالخجل ويشبعني بألم لم أعرف مثله قط من قبل.. خجل من نفسي حين أخذت صديقتك تفتش في قلبي بيديها الملطختين بالوحل وتتحدث عن غيرتي.. غيرتي ممن؟ من رجل لا أعرفه أنا ولا تعرفينه أنتِ؟ وأنتِ.. إنك لا تريدين أن تفهمي، وكأنك قد صممت على ذلك.. بمن تريدين أن تضحي من أجلي؟ يا إلهي العظيم.. الخجل لك.. الخجل لانحطاط نفسك!

وأخذ يكرر قائلًا: "تضحين من أجلي! تضحين من أجلي!".

وفكرت في نفسي قائلة: آه! هذه إذن سلطة الزوج! إنه يذل ويهين زوجته التي ترتكب أي ذنب في هذه الدنيا.. هذه حقوق الزوج، ولكنني

لن أخضع لهذا أبدًا".

وقلت له بصوت مرتفع، وأنا أحس بفتحتي أنفي تزدادان اتساعًا وبالدماء تهرب من وجهي:

- كلا.. إنني لا أضحي بشيء من أجلك. وسوف أذهب يوم السبت إلى الحفل.. نعم، سأذهب إلى هناك بكل تأكيد..

فصاح يقول في غضب لم يعد يستطيع أن يكبته:

- ليمنحك الله متعة كبيرة! ولكن كل شيء قد انتهى بيننا.. وأرجو على الأقل ألا تعذبيني طويلًا.. لقد كنت مجنونًا!

كانت شفتاه ترتعدان، وكان يبذل مجهودًا كبيرًا لكي يسيطر على أعصابه، ولكيلا يندفع أكثر من ذلك في أقواله. وكنت في هذه اللحظة أخاف منه وأكرهه، ووددت لو أقول له بدوري كثيرًا من الأشياء، وأنتقم لنفسي من إهاناته، ولكنني كنت أعرف إنني إذا فتحت فمي لن أقوى على إيقاف دموعي فتضيع كرامتي!

وغادرت الغرفة في سكون.. ولكنني ما كدت أبتعد بضع خطوات حتى استولى عليّ ذعر مفاجئ لما حدث.. استبشعت أن تتحطم هذه الرابطة التي تتوقف عليها سعادتي، وفكرت في أن أعود أدراجي، ولكن أتراه قد هدأ بما يكفي لأن أمدّ له يدي وأنظر إليه؟ وهل يدرك مقدار كرمي معه؟ وماذا يحدث لو ظن إنني أخفي شيئًا وراء ألمي الصريح لما حدث؟ ألم يصفح عني بهدوء أقرب إلى الكبرياء؟ ولماذا أهانني إلى هذه الدرجة، وهو الذي قد أحببته كل الحب؟

ولِمَ أذهب إليه؟ وإنما ذهبت إلى غرفتي، وبقيت فيها فترة طويلة أبكي وأتذكر في رعب كل كلمة من هذا الحديث الأخير، وأضع مكانها في ذهني كلمة أخرى أو أضيف إليها كلمة أفضل.. وفجأة، تذكرت ما حدث بيننا في فزع ينطوي على إحساسي بالإهانة.

***

وفي المساء، حينما التقيت بزوجي في حضور "س" وأنا أعدّ الشاي، أدركت أن هوة قد انفتحت بيننا بسبب ما حدث.. ولما سألني "س" متى نسافر، لم أستطع الرد عليه، وأجابه زوجي قائلًا:

– يوم الثلاثاء.. إننا سنذهب إلى حفل الكونتيسة "ر" .

ثم التفت نحوي وقال:

– إنك ستذهبين إلى هذا الحفل بغير شك..

ونظرت إلى زوجي في خجل، وقد ذعرت للهجة صوته التي كانت تبدو غريبة بعض الشيء، فوجدت عينيه تنظران إليّ في مزيج من المكر والسخرية.

قلت:

– نعم..

وحينما أصبحنا بمفردنا من جديد في المساء، أقترب زوجي مني ومدّ إليّ يده وهو يقول:

– أرجو أن تنسي ما قلت لك..

وأمسكت بيده.. ومرت على وجهي ابتسامة سريعة مرتعدة، وكادت الدموع تنهمر من عيني.. ولكنه أعاد يده كما لو كان يخشى حدوث مشهد عاطفي بيننا، وجلس في مقعد كبير ببعد عني بمسافة كافية..

قلت في نفسي: "أتراه لا يزال يعتقد أن الحق في جانبه؟"

وفجأة، قال يخاطبني:

– يجب أن نكتب لوالدتي لنخبرها بأننا قد أجلنا سفرنا، وإلا تسرب القلق إلى نفسها..

فقلت أسأله:

– ومتي تعتزم السفر؟

فقال:

– يوم الثلاثاء.. بعد الحفل فقلت وأنا أنظر إلى عينيه:

– أتعشم ألا يكون هذا التأجيل بسببي؟

ولكنه اكتفى بأن نظر إليّ ولم يقل شيئًا.. ثم بدا وكأن قوة سحرية تجذب عينيه بعيدًا عني.. وخُيل إليّ أن وجهه قد شاخ فجأة وأصبح كريهًا.

***

وذهبنا إلى الحفل، وكانت علاقتنا قد اكتسبت مرّة أخرى طابعًا وديًا ظاهريًا، ولكنها كانت في الواقع علاقة تختلف تمامًا عما كانت عليه في الماضي..

وفي الحفل، أقترب مني الأمير بينما كنت جالسة وسط جمع من النساء، فاضطررت للوقوف لأتحدث معه.. ولما فعلت، أخذت عيناي تبحثان عن زوجي بطريقة لا إرادية، فرأيته ينظر إليّ من الطرف الآخر من القاعة ثم يشيح بوجهه!

وفجأة، استولى عليّ خجل وألم كبيران جعلاني أشعر باضطراب شديد، حتى تصاعدت الحمرة إلى وجهي لنظرات الأمير.. ولكنني اضطررت إلى البقاء في مكاني، والإنصات إلى ما يقوله وهو يفحصني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي. ولم يكن حديثًا طويلًا.. ولم يكن هناك مكان خالٍ حتى يستطيع الجلوس إلى جواري، ولابدّ أنه قد أحسّ بأنني لا أشعر بارتياح للحديث معه. وكان حديثنا عن آخر حفل راقص، وعن المكان الذي أُمضي فيه فصل الصيف، وأشياء أخرى.

وتركني الأمير وهو يبدي رغبته في التعرف بزوجي.. ورأيتهما بعد ذلك يقفان معًا ويتحدثان في الطرف الآخر من القاعة، ويبدو أن الأمير كان يخبره بشيء عني لأنني رأيته يبتسم أثناء الحديث وينظر ناحيتي، وحينئذٍ أحمر وجه زوجي، فحيا الأمير في أدب جم وأنصرف.. وأحمر وجهي أيضًا، وخجلت من الفكرة التي كونها الأمير عني وعن زوجي بصفة خاصة. ويبدو أن الجميع قد لاحظوا حيرتي وخجلي أثناء حديثي

مع الأمير، وكذلك تصرفه الغريب. وكنت أقول في نفسي: "يعلم الله ما سيدور في خلدهم.. تُرى هل يعرفون أمر المناقشة الحامية التي حدثت بيني وبين زوجي؟".

***

وبعد انتهاء الحفل، صحبتني ابنة خالة زوجي إلى المنزل، وتحدثنا معًا في الطريق.. ولم أستطع أن أمنع نفسي من أن أقول لها كل الذي حدث بيننا بمناسبة هذا الحفل، فطمأنتني وأخبرتني بأن ما حدث من قبيل تلك المشاجرات الكثيرة التي لا معنى لها، والتي لا تخلف أي أثر في العلاقة بين زوجين متحابين.. وشرحت في شخصية زوجي كما تفهمها، وقالت إنها تجده إنسانًا متكبرًا غير اجتماعي، فوافقتها على ذلك، وأنا أحس بأنني قد أصبحت أكثر فهمًا لشخصيته!

وحينما أصبحت بعد ذلك وجهًا لوجه مع زوجي، شعرت بأن هذا الحكم الذي أصدرته عليه جرم حقيقي ثقيل الوطأة على نفسي، كما شعرت بأن الهوة بيننا أخذت تزداد اتساعًا وعمقًا!

وتغيرت حياتنا منذ ذلك اليوم، وكذلك علاقتنا المتبادلة، تغيرًا تامًا.. فلم يعد انفرادنا معًا يبدو لنا جميلًا كما كان من قبل.. وكانت هناك موضوعات نتجنب الخوض فيها، وكان من الأسهل– بالنسبة إلينا– أن نتبادل الحديث في وجود شخص غريب، في حين أننا نجد صعوبة في ذلك حين تكون وجهًا لوجه. وحينما كانت ترد في الحديث أية إشارة عن حياة الريف أو حفل راقص، كانت نار تعمي بصيرتنا فنشعر بالاضطراب لمجرد

أن ينظر كل منّا إلى الآخر، وكان كل منا يفهم النقطة الحساسة التي تفرق بيننا ويخشى الاقتراب منها!

وكنت مقتنعة بأن زوجي رجل متكبر ومتهور، وبأن من واجبي أن أكون على حذر حتى لا أصطدم بمواطن الضعف فيه فأسبب ثورته. ومن ناحيته كان مقتنعًا كذلك بأنني لا أستطيع العيش بعيدًا عن حياة المجتمع الراقي، وبأن حياة الريف لم تعد تروق لي، وبأنه يجب أن يخضع لهذا الميل "الشرير" في طبيعتي..

ولذا كان كل منّا يعمل من ناحيته على تجنب أي حديث مباشر في مثل هذه الموضوعات، وكان كل منّا يحكم على صاحبه حكمًا خاطئًا كل الخطأ!

وانتهى بنا الحال إلى أن أصبح كل منّا لا ينظر إلى صاحبه على أنه مثال الكمال في هذا العالم، بل على العكس كان كل منّا يعقد كثيرًا من المقارنات ليقارن فيها- فيما بينه وبين نفسه- بين شخصية وطابع صاحبه، وشخصية وطابع الآخرين!

الفصل الثامن

كنت متعبة جدًا قبل رحيلنا.. وبدلًا من أن نذهب إلى الريف، أقمنا بإحدى "الفيلات"، ومن هناك سافر زوجي ليرى والدته. وكانت صحتي قد تحسنت وقت رحيله إلى حد كان يمكنني من مرافقته، ولكنه حثّني على البقاء وكأنما كان يخشى أن تتأثر صحتي من جرّاء السفر. وفهمت أنه لم يكن يخشى على صحتي، وإنما كان في الواقع مقتنعًا بأنه لا يحسن بنا أن نكون في الريف، فلم أُلح عليه كثيرًا وبقيت..

والواقع إنني شعرت وأنا أعيش بدونه بالعزلة والفراغ.. ولكنه حينما عاد، لاحظت أن وجوده لم يعد يضيف إلى حياتي شيئًا كما كان يحدث من قبل. وكانت تلك العلاقات السابقة التي لم أحدثه عنها تجثم على صدري فتكتم أنفاسي كالجرائم، كما كانت تسيطر على كل أفكاري ومشاعري، في حين كانت كل أفعاله وكلماته نموذجًا للكمال..

وكانت العلاقات بيننا قد تحولت- بصورة واضحة- إلى علاقات أخرى تختلف تمامًا عن علاقات الحب المثالي التي كانت تربطنا من قبل.. ولم نكن من جانبنا نلاحظ هذا التحول الكلي. ومنذ ذلك الحين، أصبحت لكل منّا مشاغل ومصالح لم نعد نحاول أن نشترك فيها، بل ولم نعد نحس بأي اضطراب لأن كلًا منّا أصبح يعيش في عالم بعيد وغريب عن عالم الآخر؛ فقد اعتدنا هذه الحال.. ولم تلبث الحيرة- بعد مضي

عام– أن تلاشت من قلب كل منّا وهو ينظر إلى الآخر.

وكانت فترات المرح عند سيرج، وأفعاله الصبيانية، قد اختفت كذلك.. وتلاشى أيضًيا هذا التسامح الذي لا يعبأ بشيء، والذي كان يثيرني فيما مضى، كما تلاشت نظرته العميقة التي كانت تشعرني بالفزع والاضطراب في آنٍ واحد. ولم نعد نصلي معًا أو نشارك بعضنا الحماس مثلما كنا نفعل من قبل، وأصبح كل منّا لا يرى الآخر إلا نادرًا. وكان سيرج يخرج دائمًا لقضاء شئونه، ومن ناحيتي لم أعد أخاف أو أشكو من بقائي بمفردي، وكنت أندفع على الدوام تجاه العلاقات الاجتماعية دون أن أحس بحاجة إلى أن أظهر في المجتمع برفقة زوجي!

***

ولم يحدث بيننا قط أي شجار أو جدل عنيف.. وكنت أبذل جهدي لإرضائه، وكان من ناحيته ينفّذ كل رغباتي، وكان يبدو أن كلًا منا لا يزال يحب الآخر. وحينما كنا نبقى معًا بمفردنا– ولم يكن هذا يحدث إلا نادرًا– كنت لا أحس وأنا بجواره بأي سرور أو اضطراب.. وكأنني أجلس بمفردي. ولم يكن يخاف على أن ذلك الذي يجلس معي ليس شخصًيا عاديًا، ولكنه رجل ممتاز للغاية.. وكنت مقتنعة بأنني أعرف مقدمًا كل ما سيقوله أو يفعله، وحينما كان يفكر أو يتصرف خلافًا لما أتوقع، كنت أرى بكل بساطة أنه أخطأ.. ولكنني لم أكن أنتظر أي شيء من ناحيته وقصارى القول كان زوجي، ولا شيء أكثر من ذلك.. وكان يبدو إليّ أن الأمور هي هكذا.. وينبغي أن تكون هكذا، وأنه لم توجد ولا يمكن أن

توجد بيننا علاقات أخرى!

وحينما كان يتغيب، كنت أشعر مع ذلك بعزلة هائلة– خاصة في الأيام الأولى من زواجنا– وكنت أحس وهو بعيد عني بقيمته كسند لي، فأرتمي في فرح على صدره حينما يعود، ولكن لم تكن تنقضي ساعتان، حتى كنت أنسى هذا السرور ولا أجد شيئًا أقوله.

وفي اللحظات القصيرة التي كان ينبثق فيها بيننا حنان هادئ كان يخيل إليّ أن هذا ليس هو الحب الذي كان يملأ كل قلبي، وكنت أقرأ نفس الأحاسيس في عينيه. ولكننا لم نكن نريد أن نتخطى هذا الحد، الأمر الذي كان يشعرني أحيانًا بشيءٍ من الحزن.. وعلى أية حال، لم يكن لدي الوقت الكافي للتفكير جدّيًا في شيء، وكنت أجتهد في أن أنسى أحزاني بأن أنغمس في تسليات متنوعة!

وسرعان ما أصبحت حياة المجتمع تسيطر على كل ميولي، بل صارت عادة تستعبدني وتشغل من قلبي كل المكان الذي كان مخصصًا للحب. ولذا كنت أتجنب دائمًا أن أبقى بمفردي خوفًا من أن أتعمق في تأملاتي لحالتي. وكان وقتي كله مشغولاً منذ الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل. ولم يعد هذا الوقت ملكًا لي أتصرف فيه كما أشاء، حتى ولو أردت البقاء في البيت. ولم أكن أجد في بقائي أي سرور أو مضايقة.. وبدا لي أن الأمور لابدّ أن تكون هكذا دائمًا!

***

وانقضت ثلاث سنوات على هذا المنوال، ظلت خلالها علاقتنا جامدة فاترة.. وكأنما لا يمكن أن تتحسن أو تسوء أكثر من ذلك. ووقع خلال هذه الأعوام الثلاثة حدثان مفاجئان في حياتنا العائلية، ولكنهما لم يحدثا أي تغيير في حياتي!

أما هذان الحدثان، فهما ميلاد أول طفل لي ووفاة تاتيانا سيمينوفنا. وأثناء الأيام الأولى، غمر قلبي شعور عنيف بالأمومة وخُيِّل إليّ لفرط اندفاعه وتملكه لقلبي أنني على وشك أن أبدأ حياة جديدة. ولكنني ما أن بدأت أخرج من جديد بعد شهرين، حتى أخذ هذا الشعور يقلّ شيئًا فشيئًا حتى تحول إلى "عادة"!

وعلى العكس عاد زوجي، منذ ولادة هذا الابن، رجل الزمان– الماضي.. هذا الرجل اللطيف الذي يمكث دائمًا في البيت، وكان واضحًا أنه قد حول كل حنانه ومرحه السابقين إلى ولده. وحينما كنت أدخل إلى غرفة الطفل كي أقبله قبلة المساء– وأنا لا أزال أرتدي ثوب السهرة– كنت كثيرًا ما أجد زوجي جالسًا في الغرفة وكنت ألاحظ نظرة اللوم القاسية التي يوجهها إليّ، وحينئذٍ كان يعتريني خجل مفاجئ. أحيانًا، كان عدم اهتمامي بالطفل يسبب لي ذعرًا، وكثيرًا ما كنت أسأل نفسي قائلة: "تُرى، هل قُدِر لي أن أكون أسوأ من بقية النساء؟". ولكنني كنت أعود فأجيب على نفسي بقولي: "ولكن.. ماذا أفعل لتفادي ذلك؟".

وكنت أحب طفلي حقًا، غير أنني لم أكن أستطيع أن أظل جالسة إلى جواره أيامًا بأسرها؛ فقد كان هذا خليقًا بأن يشعرني بالضيق.. ولم أكن

أرضى التصنع لنفسي بحال من الأحوال!

وسبب موت والدة سيرج له حزنًا كبيرًا.. وبرغم أني كنت أشاركه أحزانه، إلا أنني كنت أفضل الآن أن أعيش في راحة بالريف. وكنّا قد أمضينا الجانب الأكبر من هذه السنوات الثلاث في المدينة، ولم أذهب خلالها إلى الريف سوى مرة واحدة لمدة شهرين. وحدث خلال السنة الثالثة أن سافرنا إلى الخارج، حيث أمضينا الصيف في مدينة اشتهرت بمياهها المعدنية.

***

كنت حينئذٍ في الحادية والعشرين من عمري.. وكان يُخيل إليّ أن ثروتنا في أوج ازدهارها، وأن جميع من أعرفهم يحبونني. وكنت أتمتع بصحة جيدة، وأرتدي ثيابًا من أحدث طراز في مدينة المياه المعدنية هذه، كما كنت أعرف أنني جميلة.. وكان الجو بديعًا وكل شيء يبدو مرحًا من حولي. ومع ذلك لم أكن أشعر بأنني سعيدة مثلما كنت وأنا في بيت نيكولسكي، وقت أن كانت سعادتي كامنة في نفسي لأنني أستحق السعادة. كانت حالتي النفسية قد تعرضت لتيارات مختلفة، ولكن هذا الصيف كان طيبًا. ولم يكن هناك ما أشتهيه، أو آمل فيه، أو أخشاه.. لقد كانت حياتي في أوجها، وكان ضميري مرتاحًا..

ولم أجد من بين الشبان اللاعبين في مدينة المياه المعدنية هذه واحدًا يمتاز في شيء عن الآخرين، ولا حتى ذلك الأمير العجوز "ك".. سفيرنا الذي كان يغازلني قليلًا. كانوا إما حديثي السن أكثر من اللازم، وإما

كبار السن للغاية. وكان هناك رجل إنجليزي ذو شعر أشقر، وآخر فرنسي ذو لحية.. وكنت لا أبدي أي اهتمام بأحد، وفي الوقت نفسه لم أكن أستغنى عنهم؛ فقد كانوا بوجوههم الخالية من التعبير جزءًا لا يتجزأ من جو هذه الحياة الأنيقة التي كنت منغمسة فيها!

ومع ذلك، لفت أحدهم انتباهي أكثر من الآخرين بالطريقة الجريئة، التي عبّر بها أمامي عن الحماس الذي أثيره في نفسه. وكان هذا هو الماركيز "د" .. الإيطالي الجنسية. وكان لا يدع فرصة للالتقاء بي تفلت منه.. فكنّا نمتطي الجياد ونذهب إلى الملهى، وكثيرًا ما كان يقول لي أنني جميلة. أحيانًا كنت أراه من نافذتي وهو يحوم حول منزلنا، وكثيرًا ما أحمرت وجنتاي خجلًا منه، فكنت دائمًا أشيح عنه بوجهي لأنه كان يثبت في بصره على الدوام، ولم يكن هذا يروقني..

كان صغير السن أنيقًا وسيمًا.. وكان يشبه زوجي في ابتسامته وتعبير محياه، ولكنه كان أجمل من زوجي بكثير. وكان هذا الشبه يدهشني، بيد أنه كانت هناك فروق بينهما في الشخصية، وفي الفم، والنظرة والذقن المستطيلة. وكان مظهر زوجي يعبر عن طيبة وهدوء عجيبين.. وكان هذا يكسبه سحرًا مثاليًا، بينما كان في هذا الشاب شيء ما بدائي وحيواني!

***

وخطر ببالي أن هذا الشاب الإيطالي يحبني حبًا جمًا، ومن ناحيتي كنت أفكر فيه أحيانًا بمزيج من الفخر والعطف. وحينما حاولت أن أهدئ من انفعاله، وأن أجعله يقف عند حد الثقة والود المتبادل، لفظ

محاولتي واستمر يثير الاضطراب في نفسي، برغم كراهيتي لذلك.. وظلت عواطفه تهدد بالانفجار في أية لحظة!

وكنت أخشى هذا الرجل على الرغم من أنني لم أعترف بذلك لنفسي، وكثيرًا ما كنت أفاجئ نفسي وأنا أفكر فيه. وكان زوجي قد تعرف به، ونشأت بينهما صداقة حميمة أكثر من صداقة سيرج لمعارفنا الآخرين، الذين كان يفضل أن يبدو أمامهم بمظهر زوج بارد متعال!

وأصبت بمرض في نهاية موسم الاصطياف، ولم أغادر المنزل طيلة أسبوعين.. وحينما خرجت ليلًا– لأول مرة – بعد مرضي للاستماع إلى شيء من الموسيقى، علمت أن سيدة تُدعى ليدي "س" قد جاءت إلى المصيف. وكان الناس ينتظرون قدومها منذ مدة طويلة، وكانت مشهورة بجمالها الرائع.

والتف من حولي جمع من الناس استقبلوني بسرور.. ولكن حشدًا أكبر التف حول ليدي "س" التي كانت قد سبقتني إلى المكان ببضع لحظات، وكان الناس من حولي لا يتحدثون إلا عنها وعن جمالها. وحينما رأيتها وجدتها جذابة حقًا، ولكنني أحسست نحوها باشمئزاز بسبب تعاليها واعتدادها بنفسها، وصارحت معارفي بهذا الشعور. وعلى أية حال، كان مما جعلني أشعر بالضيق في ذلك اليوم أن كل الناس كانوا مرحين للغاية. وفي اليوم التالي، رتبت ليدي "س".. رحلة إلى القصر، ولكنني رفضت الاشتراك فيها. ولما خرج الجميع في هذه الرحلة وبقيت بمفردي ما بدا لي كل الرجال تافهين وسخفاء، وأحسست برغبة في البكاء وفي إنهاء إقامتي

بالمدينة والعودة إلى روسيا بأسرع ما يمكن!

كان شعور جارح قد تسرب إلى نفسي، ولكنني لم أكن أريد الاعتراف بذلك.. وادعيت أنني أشعر بتوعك، وامتنعت عن الظهور في حلقات المجتمع الراقي. ولم أكن أخرج إلا نادرًا، وكنت حينما أفعل أخرج صباحًا وبمفردي كي أشرب شيئًا من المياه المعدنية، أو أذهب لزيارة الضواحي في رفقة السيدة "ل.م" وهي إحدى معارفي الروسيات. ولم يكن زوجي معي في هذه الفترة.. إذ كان قد ذهب منذ عدة أيام إلى مدينة هايدلبرج، حيث كان ينتظر انتهاء فترة استشفائي بالمياه المعدنية كي يعود بعد ذلك إلى روسيا، ولم يكن يأتي لرؤيتي إلا من حين لآخر!

***

وذات يوم، جرّت ليدي "س" خلفها كل المجتمع الراقي إلى حفل، واتفقت مع السيدة "ل. م" على أن نذهب معًا إلى الحفل.. وسارت عربتنا التي تجرّها الجياد في الطريق الكثير المنحنيات بين صفوف أشجار الكستناء العتيقة، التي يستطيع المرء من خلالها أن يلمح ضواحي مدينة بادن الساهرة.. كان ذلك عند غروب الشمس، وكنا نتحدث بجد، الأمر الذي لم يحدث بيننا من قبل.

لقد كنت أعرف السيدة "ل.م" منذ مدة طويلة.. ولكنها بدت في ذلك اليوم جميلة خفيفة الظل يستطيع المرء أن يحدثها في أي شيء.. ودار الحديث بيننا عن حياة الأسرة والأولاد، وتلك الحياة الفارغة التي نحياها في المصيف، وأبدينا رغبتنا في أن نلتقي في ريف روسيا. وحينئذٍ

غمر نفسي فجأة شعور بالحنين والحزن لم أعرف له سببًا. وأخيرًا وصلنا إلى قصر ليدي "س" ونحن واقعتان تحت تأثير هذه المشاعر الجادة.

كانت الظلال والرطوبة تسودان خلف جدران هذا القصر، وكانت أشعة الشمس– قبل الغروب. لا تزال تداعب قمم الأطلال، وكان وقع خطانا يتردد صداه تحت القباب. وظهرت من خلال الباب المفتوح المناظر الطبيعية لمنطقة بادن، فبدت كلوحة داخل إطار.. ولكنها كانت مع ذلك مناظر باردة في نظرنا نحن الروس.

***

وجلسنا نستريح، وأخذنا نتأمل غروب الشمس في صمت. وفجأة، تناهت إلى أسماعنا أصوات واضحة، وخُيل إليّ أن شخصًا يذكر اسم عائلتي. وأرهفت السمع فالتقطت أذناي بعض الكلمات بطريقة لا إرادية.. كانت أصوات أعرف صاحبيها.. الماركيز "د".. وصديقه الفرنسي الذي كنت أعرفه كذلك. كانا يتحدثان عني وعن ليدي "س".. وكان الفرنسي يقارن بيني وبينها ويحلل جمال كل واحدة منّا. ولم يذكر أي شيء يخدش المشاعر، ومع ذلك غلت الدماء في عروقي حينما سمعت كلماته. كان يشرح بالتفصيل ما يراه جميلًا، سواء في أم في ليدي "س".. وبالنسبة إليّ، ذكر أنني سبق أن أنجبت طفلًا، أما بالنسبة إلى ليدي "س" فهي لا تزال في التاسعة عشرة من عمرها. وكان يرى أن ضفائر شعري أكثر جمالًا من ضفائر الليدي "س".. ولكن شعر الليدي أكثر رقة. وذكر أيضًا أن ليدي "س" من زهرات المجتمع المعروفات أما أنا فمن هذا

النوع من الأميرات الروسيات الصغيرات، اللاتي يحضرن كثيرًا إلى مدن المياه المعدنية حبًا في الظهور. واختتم الفرنسي حديثه قائلًا عني أنني حسنًا فعلت بعدم دخولي في منافسة مع الليدي، وإلا لكنت لاقيت حتفي في مدينة بادن!

وهنا أجابه الإيطالي قائلًا:

– إن هذا خليق بأن يحزنني حقًا..

فقال له الفرنسي، وهو يطلق ضحكة مرحة قاسية:

– إلا إذا كانت ترغب في مواساة نفسها بصحبتك!

فقال الإيطالي بلهجة جافة:

– سوف أتبعها إذا رحلت..

فأجابه الفرنسي قائلًا في سخرية:

– يا لك من إنسانٍ سعيد الحظ! إذن، فأنت تستطيع أن تقع في الحب!

فقال الإيطالي في دهشة:

– أستطيع أن أحب؟!

وأخلد إلى الصمت لحظة، ثم أضاف يقول:

– يمكنك بالأحرى أن تقول عني أنني لا أستطيع أن أعيش بغير حب.. إن أفضل شيء في الحياة هو أن يجعل المرء من حياته

قصة. قصتي لن تتوقف أبدًا عند منتصفها؛ لأنني أزعم السير فيها حتى النهاية، تمامًا كما سبق أن سرت في قصصي الأخرى.

وأخيرًا قال الفرنسي:

- أتمنى لك حظًا سعيدًا يا صديقي..

ولم أستطع أن أسمع أكثر من ذلك؛ لأنهما انتقلا خلف أحد الجدران وأخذا ينزلان الدرج. وبعد بضع دقائق، وبينما كانا يخرجان من أحد الأبواب الجانبية، وقع بصرهما علينا فبدت على وجهيهما إمارات دهشة شديدة. وصعدت الدماء إلى وجهي حينما اأقترب مني الماركيز "د" استولى عليّ الذعر حينما رأيته يقدم لي ذراعه ونحن نخرج من القصر، ولكنني لم أستطع أن أرفضها.. وأخذنا نسير خلف السيدة "ل. م" التي كانت تسير في رفقة صديق الماركيز.

واتجهنا نحو العربة.. وكنت أشعر بالإهانة بسبب ما ذكره عني الفرنسي، ومع ذلك اعترفت بيني وبين نفسي أنه لم يفعل أكثر من التعبير عمّا كنت أشعر به في دخيلتي. أما كلمات الماركيز الفظة، فقد كانت تثير في نفسي شعورًا عنيفًا بالثورة والخجل!

وكانت تعذبني فكرة أنني استمعت إلى هذه الكلمات، ولكنني لم أعد أشعر في الوقت نفسه بأي خوف منه.. بل على العكس كنت أحس باشمئزاز وهو يسير إلى جواري، ولم أكن أنظر إليه أو أجيب على حديثه، وإنما حاولت جهدي أن أسير مباشرة خلف صديقتي والفرنسي. وكان الماركيز يحدثني عن جمال الطبيعة، وعن سعادته بهذا اللقاء غير المنتظر،

وعن أشياء أخرى كثيرة لا أذكرها لأنني لم أكن أنصت إليه.

***

وكنت أثناء ذلك أفكر في زوجي وابني، وكانت تتنازع نفسي مشاعر متباينة، هي: مزيج من الخجل والإشفاق والرغبة في أن أعود سريعًا إلى غرفتي المنعزلة في فندق بادن، حتى أستطيع أن أفكر بحرية فيما كان يدور في نفسي. ولكن صديقتي كانت تسير على مهل، وكانت لا تزال أمامنا مسافة طويلة للوصول إلى العربة وشعرت بأن الماركيز يبطيء في السير عن عمد محاولًا أن يبقى معي بمفرده؛ فأخذت أردد في نفسي قائلة: "كلا.. هذا شيء لا يمكن أن يحدث". وقررت أن أسرع الخُطى، ولكنه منعني من ذلك بأن أخذ يجذب ذراعي إلى ذراعه بطريقة واضحة. وفي هذه اللحظة، انعطفت صديقتي- مع منحنى بالطريق- فأصبحت معه بمفردي، وتملكني خوف شديد..

قلت له في لهجة باردة:

- دعني من فضلك..

وأردت أن أجذب ذراعي؛ فاشتبك طرف كمي المصنوع من الدانتيلا بأحد أزرار سترته، وحينئذٍ انحنى نحوي وأخذ يخلي سبيل الكم، فلمست أصابعه ذراعي العارية.

لم أكن أحس بفزع أو سرور.. وأثار هذا الشعور قشعريرة باردة أحسست بها تجري في ظهري، ونظرت إليه وأنا أحاول أن أجعل نظرتي الباردة تعبر له عن مدى احتقاري، ولكن يبدو أن هذه النظرة لم تعبر عن

الاحتقار بقدر ما كانت تعبر عن الذعر والاضطراب.

كانت عيناه المشتعلتان تحدقان في وجهي.. وكانت يداه تمسكان بمعصمي، وتمتمت شفتاه تقولان إنه يحبني، وإنني كل شيء بالنسبة إليه. وأخذت يداه تضغطان عليّ بقوة أكثر؛ فأحسست بالنار تسري في عروقي. وأظلمت عيناي، وأرتد جسمي، وجفت في حلقي الكلمات التي كنت أوشك أن أنطق بها لأوقفه عند حده..

وفجأة، شعرت بقبلة تطبع على وجنتي.. فمكثت جامدة في مكاني أنظر إليه، وقد تثلج بدني دون أن تكون لدي القوة كي أتكلم أو أقدم على تصرف. كان الفزع يشلني، فبقيت واقفة لا أدري ماذا ينبغي أن أفعل؟

***

حدث كل ذلك في لحظة واحدة.. ولكنها كانت لحظة رهيبة! لقد رأيته في هذه اللحظة على حقيقته. واستطعت أن أحلل وجهه بنظرة واحدة، وكذلك أن أستشف ما يدور خلف جبينه القصير المنخفض. وأمعنت النظر في أنفه المستقيم ذي الفتحتين المنتفختين، وشاربه، وذقنه التي حُلقَت بعناية، وكذلك رقبته التي لوحتها أشعة الشمس. لقد كنت أحتقره وأخشاه.. إنه كان شخصًا غريبًا عني، ومع ذلك كان حب هذا الرجل الذي أكرهه يدوي في نفسي دويًا عنيفًا!

وتمتم يقول بصوته الذي يشبه صوت زوجي:

– إنني أحبك..

وفجأة.. قفزت إلى ذاكرتي صورة زوجي وولدي، كأنهما شخصان عزيزان كنت أعرفهما فيما مضى، وانتهى كل شيء بالنسبة لهما.. وسمعت فجأة صوت صديقتي يناديني من منعطف الطريق، فعادت إليّ رباطة جأشي وانتزعت يدي وعدوت هاربة كي ألحق بها.

وركبنا العربة، وحينئذٍ نظرت إليه لأول مرة.. فخلع قبعته وقال لي وهو يبتسم ويقول شيئًا لا أذكره، وبدا واضحًا أنه يشعر بمقدار ما كان يسببه لي من عذاب أليم في هذه اللحظة. وبدت إليّ الحياة بائسة للغاية، والمستقبل مظلمًا للغاية، والماضي رهيبًا للغاية! وأخذت صديقتي تحدثني، ولكنني لم أفهم كلمة واحدة مما قالت، وخُيل إليّ أنها تتحدث معي بدافع من العطف فحسب.. ولكنها تخفي الاحتقار الذي تكنّيه لي في قرارة نفسها. وكنت أستشف هذا الاحتقار وهذا العطف المهين في كل كلمة من كلماتها، وكل نظرة من نظراتها.

وكانت قبلته لا تزال تحرق وجنتي.. ولم أستطع أن أتحمل عذاب التفكير في زوجي وولدي. وفي غرفتي، مكثت بمفردي وأنا أحاول أن أتأمل موقفي.. وبدت لي فكرة بقائي وحدي أمرًا يثير الفزع. ولم أتناول الشاي الذي قُدِم إليّ، واتخذت بسرعة مذهلة قرارًا بالسفر في نفس الليلة بالقطار إلى مدينة هايدلبرج كي ألحق بزوجي، دون أن أدري لماذا؟!

ولما جلست مع خادمتي الخاصة في مقصورة القطار الخالية، أخذت أستنشق الهواء المنعش من النافذة المفتوحة، فبدأت أثوب إليّ نفسي

وأتمثل ماضي ومستقبلي على نحو أكثر وضوحًا. وفجأة بدت لي حياتي الزوجية– منذ يوم رحيلي إلى بطرسبرج– بصورة ملأت ضميري بالوخز والندم!

***

وتذكرت لأول مرة مشروعاتي وبداية حياتنا في الريف، وكذلك وجهت لنفسي هذه العبارة للمرة الأولى: "كم كانت مسرات سيرج عظيمة في ذلك الحين!"، وأحسست بأنني مخطئة ومذنبة في حق زوجي. وقلت أسأل نفسي: "ولكن لماذا لا يمنعني هو؟ ولماذا يخفي مشاعره أمامي؟ ولِمَ يتجنب أي محاولة لتصفية الموقف؟ ثم، لماذا يهينني؟".

نعم.. لماذا لم يكن سيرج يستخدم سلطان حبه معي؟ أم تُراه لم يعد يحبني؟ .. وسواء كان سيرج مخطئًا أم لا، فإن قبلة هذا الشخص الغريب لا تزال مطبوعة على خدي، وكنت لا أزال أشعر بها. وكلما ازداد القطار اقترابًا من هايدلبرج، اتضحت صورة زوجي أمام عيني، وازددتُ رهبةً من لقائه. وفكرت في أن أقول له كل شيء.. نعم كل شيء، وأن أغرق وجهي بدموع الندم، ولابدّ أن يغفر لي سيرج.. غير أني لم أكن أعرف ما هو "كل شيء" هذا الذي سأخبره به.. ولم أكن واثقة كذلك أنه سوف يغفر لي..

وحينما دخلت أخيرًا إلى غرفة زوجي، ووقع بصري على وجهه الهادئ الذي لم تفلح الدهشة في أن تزيل عنه هدوءه، شعرت بأنني في حالة لست أقوى معها على أن أقول شيئًا أو أعترف له بشيء، أو أطلب

منه الصفح، وكان يجثم على صدري إحساس عميق بالندم والغضب.

قال سيرج:

– ما الذي دفعك إلى الحضور؟ لقد كنت أنوي أن ألحق بك غدًا!

وأخذ يفحصني لحظة عن قرب، وقد بدا مذعورًا بعض الشيء، ثم أضاف قائلًا:

– ماذا حدث لك؟ تكلمي!

فقلت وأنا أغالب دموعي:

– لا شيء.. لقد جئت إليك.. لنرحل غدًا إلى بيتنا في روسيا، فظل سيرج مدة طويلة ينظر إليّ بإمعان.. وأخيرًا قال:

– هيا.. قُصِي عليّ ما حدث لك..

وأحمر وجهي على الرغم مني، وخفضت عيني.. وخُيل إليّ أن شعورًا بالغضب والإهانة يلمع في نظرته. وكنت أخشى الفكرة التي يمكن أن تستحوذ على رأسه؛ فأحسست بقدرة على كتمان مشاعري لم أكن أعتقد أبدًا أنها في وسعي.. وأسرعت أقول له:

– لم يحدث لي شيء.. وكل ما هنالك أن تملكني الحزن والضيق لقد كنت بمفردي؛ فأمعنت التفكير فيك وفي حياتنا..كم أخطأت في حقك منذ وقت طويل! ولكنك الآن تستطيع أن تأخذني معك أينما تشاء!

ورحت أكرر قائلة:

- نعم.. لقد أخطأت في حقك منذ وقت طويل.

وانهمرت الدموع من عيني من جديد، فصحت قائلة:

- لنعد إلى الريف، ولنمكث هناك إلى الأبد..

فقال في برود:

- وفري على نفسك مئونة هذه المواقف العاطفية يا صديقتي.. ومن الخير أن نذهب إلى الريف لأن المال يعوزنا بعض الشيء. ولكن لا تحلمي بالبقاء في الريف إلى الأبد؛ إذ إنني أعرف أنك لا تستطيعين أن تمكثي فيه فترة طويلة!

ونهض لينادي الخادم، وهو يختتم حديثه قائلًا:

- هيا أشربي قدحًا من الشاي..

وكنت أتخيل ما يفكر فيه بشأني.. وشعرت بالإهانة من نظراته، التي كانت تنمّ عن الشك والخجل. كلا.. إنه لا يريد أن يفهمني! بل ولا يستطيع أن يفهمني!

وتركته بعد أن أخبرته بأنني ذاهبة لرؤية طفلي؛ فقد كنت أتوق لأن أكون بمفردي حتى أستطيع أن أبكي.. أبكي.. أبكي..

الفصل التاسع

دبّت الحياة من جديد في بيت نيكولسكي، بعد أن ظل باردًا خاليًا فترة طويلة.. ولكن لم يعد يعيش فيه كل من كانوا به من قبل؛ إذ ماتت حماتي وأصبحت أنا وسيرج منذ ذلك الحين وجهًا لوجه..

والآن، لم تعد الوحدة فقط هي كل ما كان يلزمنا، بل أنها أصبحت مصدر حرج لنا كذلك..

وانقضى الشتاء بالنسبة إليّ على نحوٍ سيئ، خاصة وإنني كنت مريضة، ولم تتحسن صحتي إلا بعد أن وضعت ابني الثاني. واستمرت علاقتي بزوجي علاقة صداقة باردة، مثلما كانت أيام حياتنا في مدينة بطرسبرج، ولكن كل شيء في قصرنا الريفي: الجدران، وقطع الأثاث، والأرضيات، كان يذكرني بسيرج الذي فقدته!

كنا وكأن بيننا هوة سحيقة لا سبيل إلى عبورها.. وكان يبدو كمن يريد أن يعاقبني عن خطيئة ارتكبتها، وكنت أتمنى أن تتاح لي فرصة كي استسمحه وأطلب منه الصفح والمغفرة، ولكن كيف يطلب المرء الصفح دون أن يعرف الخطأ الذي ارتكبه؟ إنه كان يعاقبني عن طريق عدم الاهتمام بأمري، فلم يعد يعطيني نفسه، ولم يعد يفتح لي قلبه وروحه مثلما كان يفعل في الماضي. وكان لا يخبر أحدًا بما يدور في قلبه.. وكأنما

صار إنسانًا بلا قلب!

وأحيانًا كان يجول بخاطري أنه يتظاهر بذلك كي يعذبني.. أما شعوره القديم نحوي فلا يزال كما هو.. وكان يحدث أن أجتهد في إثارته كي يكشف لي عن هذا الشعور القديم، ولكنه كان يتهرب دائمًا كلما حاولت التفاهم معه بصراحة!

***

وخُيل إليّ أنه يشك في إنني أخفي شيئًا عنه، وأنه يخشى أن يظهر لي مشاعره.. وكان هذا أمرًا يبعث على السخرية منه. وكانت نظراته وسيماء وجهه تفصحان عن رغبته في أن يقول: "إنني أعرف كل شيء، وكل الذي تريدين قوله.. إنني أعرف جيدًا إنك تتحدثين بطريقة وتتصرفين بطريقة أخرى"، وكنت أشعر بالإهانة في البداية بسبب خوفه هذا من أن يكون صريحًا.. ولم أعد أستطيع بدوري أن أقول إنني أحبه، أو أطلب منه أن يشاركني الصلاة، أو أناديه ليستمع إلى الموسيقى التي أعزفها. وكان يشعرني بأن قواعد معينة للسلوك تسود علاقتنا طبقًا لاتفاق عرفي بيننا!

كان كل منا يعيش في ناحية.. سيرج غارق في أعماله ومشغولياته التي لم أعد أشعر بالحاجة أو الرغبة في مشاركته فيها، وأنا بفراغي الذي لم يعد يحزنني أو يجرح مشاعري كما كان يحدث في الماضي. أما الطفلان، فكانا لا يزالان صغيرين، ولم تستطع عاطفتنا المشتركة نحوهما أن تستعيد الروابط التي كانت تربط بين قلبينا..

وأثناء ذلك حلّ الربيع فجأة.. وجاءت ماشا وسونيا لتمضية فصل

الصيف في الريف، ولما كنا نقوم ببعض الإصلاحات في بيت نيكولسكي؛ فقد ذهبنا للإقامة في بيت بوكروفسكي، الذي كان على الدوام منزلنا القديم، بشرفته الفسيحة وغرفة مائدته التي لا تغلق، والبيانو الموضوع في الصالة المضيئة، وغرفتي القديمة ذات الستائر البيضاء، وأحلامي وأنا فتاة شابة.. تلك الأحلام التي يبدو أنني قد نسيتها.

وكان بالغرفة سريران، ينام في أحدهما نيكولاي الصغير الذي كنا نسميه "كوكوشا" تدليلًا، وفي الآخر ولدي إيفان الصفير الذي كنا ندلله "بفازيكا". وكنت أذهب إلى هذه الغرفة لأبارك كوكوشا ذا الوجنتين الكبيرتين، وأتأمل فازيكا البدين الذي تطل ساقاه من اللفة. وكنت بعد أن أقبلهما أظل واقفة مدة طويلة وسط هذه الغرفة الهادئة.. وفجأة كانت كل ذكريات شبابي المنسية تطل عليّ من أركانها الأربعة ومن خلف ستائرها، وتغني لي أغنيات الطفولة القديمة!

ماذا أصبحت هذه الذكريات؟ وماذا أصبحت تلك الأغنيات الجميلة؟ لقد حدث ما كنت لا أجرؤ حتى على تخيله، وأصبحت أحلامي حقائق معقدة غامضة، وحياتي صعبة ثقيلة الوطأة لا طعم لها ولا لذة فيها.. ومع ذلك، بقيت جميع الأشياء من حولي كما كانت في الماضي تمامًا.. أليست هذه نفس الحديقة التي تُرى من خلال النافذة، ونفس الشرفات والممرات والمقاعد؟ أليس هذا نفس تغريد البلبل الذي ينبعث من فوق الربوة عند مياه البركة ونفس الأزهار، التي لا زالت مزهرة كما

كانت في الأيام السابقة؟ ومع ذلك، كان كل شيء قد تغير في نفسي تغيرًا بشعًا!

وكنت وماشا لا نزال نتحدث في هدوء، كما كنا نفعل من قبل ونحن جالسان في غرفة الجلوس. وحينما كنت أتحدث عن سيرج كانت ماشا تقطب حاجبيها، ويصفر لونها، ولم تعد عيناها تلمعان بالأمل والسرور، وإنما تعبران عن حزن عميق، ومؤاخاة لي وعطف عليّ. وكنا نحلم ونحن نتحدث عنه كما كنّا نفعل في الماضي وإنما كنّا نحكم الآن عليه، ولم نعد نعجب بسعادتنا أو نرغب في أن نتحدث عنها ونعلنها على العالم بأسره.. بل كنا نتهامس كالمتآمرات، وكانت كل منّا تسأل الأخرى عشرات من المرات: لماذا تغير كل شيء؟ لماذا أصبح كل شيء حزينًا هكذا؟

وظل سيرج كما هو.. لم يطرأ عليه شيء إلا أن ازداد عمق الثنية التي تقسم جبينه، وكذلك عدد الشعرات البيضاء على جانبي رأسه، وكان هناك غيم يغطي دائمًا نظرته المنتبهة العميقة. ومن ناحيتي كنت لا أزال كما أنا.. فقط لم يعد يوجد في نفسي حب أو رغبة، كما لم أعد أشعر بالحاجة إلى إرضاء نفسي. وبدا إليّ حماسي الديني السالف، وحبي القديم، وحياتي العائلية السابقة.. كل هذه وغيرها بدت لي اليوم أمورًا بعيدة للغاية. ولم أكن أفهم ما كان يبدو لي حينذاك مشرقًا وجميلًا، ولا كيف يجد الإنسان السعادة في العيش من أجل الآخرين.. ولماذا أعيش من أجل الآخرين بينما لا أريد العيش من أجل نفسي؟

وكنت قد أهملت الموسيقى تمامًا في الوقت الذي ذهبت فيه إلى بطرسبرج.. ولكن منظر البيانو القديم أعاد إليّ الميل إلى الموسيقى.

***

ومرضتُ ذات يوم، فمكثت وحدي في البيت، وكانت سونيا وماشا قد ذهبنا إلى بيت نيكولسكي لرؤية الإصلاحات الجديدة، فجلست أمام البيانو لأشغل نفسي بالعزف في انتظار عودتهما..

وبدأت في العزف، ولم ألبث أن استغرقت فيه.. ولم يكن هناك أحد يسمع أو يرى.. وكانت النوافذ التي تطل على الحديقة مفتوحة، والأنغام الحزينة العميقة تدوي في أرجاء الغرفة. ولما فرغت من عزف الجزء الأول من المقطوعة، نظرت بغير وعي مني– وبحكم العادة– إلى الركن الذي كان سيرج يجلس فيه لينصت إلى عزفي، ولكنه لم يكن هناك، وكان المكان مشغولًا بمقعد لهم يتغير وضعه منذ زمن طويل. ولمحت على حافة النافذة شجيرات ورد ظهرت بوضوح في أشعة الشمس الغاربة، وكانت الرطوبة تتسلل من خلال النوافذ المفتوحة.

واتكأت على آلة البيانو، وغطيت وجهي بيدي، واستغرقت في الأحلام. ويبدو إنني قد بقيت هكذا مدة طويلة.. أتذكر في ألم ذلك الماضي الذي ولى بغير أمل في العودة، والحاضر الذي يبعث في نفسي الخجل. وأخيرًا رفعت رأسي في نزع، وأخذت أعزف نفس المقطوعة من جديد حتى لا أستغرق مرة أخرى في التفكير. ومع ذلك، كنت أحدثُ نفسي قائلة: "يا إلهي! اغفر لي إن كنت أذنبت، وأعد إليّ نفسي كل ما

كـان يجمـل روحـي، وعلمـني مـا يجـب علـي أن أفعلـه، وكيـف يجـب أن أعيش".

وسمعت صوت عجلات عربة تسير فوق العشب أمام سلم الشرفة، ثم وقـع أقـدام مألوفـة تصـعد الـدرج في هـدوء، ولم تلبـث أن توقفـت. ولم يـوقظ صـوت هـذه الأقـدام الـتي أعرفهـا جيـدًا نفـس المشـاعر، الـتي كـان يوقظها في نفسي فيما مضى.. وحينما انتهيت من العزف، بـدأت الأقـدام سيرها من جديد، ثم شعرت بيد توضع فوق كتفي..

قال سيرج:

– يا للفكرة الطيبة التي جاءت بك إلى هنا لتعزفي هذه المقطوعة!

وأضاف يقول حينما لم يسمع إجابة:

– ألا تتناولين الشاي؟

وهـززت رأسـي علامـة النفـي، دون أن ألتفـت إلى الخلـف حـتى لا يلاحظ إمارات الاضطراب التي كانت بادية على وجهي..

واستطرد سيرج يقول:

– إنهما على وشك أن تحضرا.. لقد جن جنون الحصان ففضلتا أن تعودا سيرًا على الأقدام..

فقلت:

– فقلنا سننتظرهما..

وانتقلت إلى الشرفة وأنا آمل أن يلحق بي هناك.. ولكنه استفسر عن الطفلين ثم ذهب لرؤيتهما.. ولكن نبرات صوته الطيب الحلو أزالت من نفسي فكرة أن كل شيء قد ضاع بغير رجعة، وقلت لنفسي: "ماذا يمكن أن أشتهي أكثر من ذلك؟ إنه طيب ووسيم، وزوج مثالي ووالد ممتاز.. ولست أدري أنا نفسي ما الذي ينقصني".

وجلست في الشرفة على نفس المقعد الذي جلست فيه يوم تفاهمنا المشهود على الزواج. وكان قرص الشمس قد أوشك أن يختفي وراء الأفق، والظلام قد بدأ يسود المكان.. وكانت الرياح قد خفت حدتها والأزهار تنفث في الجو رائحة ذكية نفاذة..

وحاولت عبثًا أن أهدئ نفسي.. وأخيرًا نزل سيرج وقال وهو يجلس إلى جواري:

– يخيل إليّ أن الدنيا ستمطر، وأن ماشا وسونيا ستغرقهما مياه المطر..

فقلت:

– نعم..

ثم ساد بيننا صمت طويل..

وعلى الرغم من سكون الرياح، لم تكف الغيوم عن الاقتراب من الأرض بسرعة.. وفجأة سقطت قطرة مطر كبيرة على أرض الشرفة، وتلتها قطرة أخرى فوق حصى ممر الحديقة.. ولم يلبث المطر أن انهمر

كالسيل، وهو يحدث صوتًا عميقًا ثقيلًا.. وكانت أصوات البلابل والضفادع قد تلاشت، فلم يعد يُسمع غير هدير المطر..

وكنا نستطيع أن نميز في وضوح قطراته الكبيرة التي تتساقط في الهواء، وكان هناك عصفور قد اختفى تحت غصن جفت أوراقه في مكان ما بالقرب من الشرفة، وكان يغرد نغمتين لا تنفيران. ثم نهض سيرج من مكانه، وبدا عليه أنه يريد أن يرحل فقلت أسأله وأنا أحتجزه إلى جواري:

– إلى أين أنت ذاهب؟ إن الجو هنا جميل للغاية!

فقال:

– يجب أن أرسل مظلة وحذاءين برقبة إلى سونيا وماشا

فقلت:

– ليس هذا ضروريًا لأن المطر سينقطع في الحال..

ووافقني على ذلك.. وبقينا معًا بالقرب من سور الشرفة الرطب، وكنت متكئة بيدي على السور، وأمد رأسي خارج الشرفة فيبلل رذاذ المطر المنعش شعري ورقبتي.

وأخيرًا، كفّ المطر عن السقوط.. وعادت البلابل إلى غنائها من جديد وهي مختبئة خلف كتل الأوراق، التي تلمع تحت ضوء القمر. وانحنى سيرج على سور الشرفة، ثم قال وهو يتخلل شعري بأصابعه:

– ما أجمل الحياة!

وأثرت هذه المداعبة البسيطة في نفسي تأثيرًا يشبه العتاب، حتى شعرت برغبة في البكاء.. بينما استمر سيرج في حديثه قائلًا:

– ماذا يريد الرجل أكثر من ذلك؟ إنني سعيد في هذه اللحظة ولا شيء ينقصني..

وقلت أفكر في نفسي: "إنك لم تقل لي ذلك حينما كان مثل هذا الكلام يسبب لي السعادة.. ومهما كانت سعادتك كبيرة كنت تقول لي حينئذٍ إنك تريد المزيد. وها أنت ذا الآن تبدو هادئًا ومسرورًا، بينما نفسي مفعمة بندم قد لا يمكن إزالته، وبدموع تريد أن تنهمر!".

ولكنني أجبته قائلة:

– إن الحياة طيبة بالنسبة إلي كذلك.. ولكنني حزينة لأنها طيبة نحوي.. إنني أحس بأن شيئًا ما ينقصني، وأرغب دائمًا في شيء آخر. وعلى الرغم من ذلك، فكل شيء هنا طيب وهادئ للغاية! فهل يمكن ألا يمتزج في نفسك أي حزن بهذه المتع التي منحتها لك الطبيعة؟ كأن تندم مثلًا على شيء ما في ماضيك.

***

ورفع سيرج يده التي كان يضعها على رأسي، ولاذ لحظة بالصمت.. ولم يلبث أن قال وكأنه يستجمع ذكرياته:

– نعم.. لقد حدث لي ذلك أيضًا فيما مضى وخاصة في أيام الربيع. وكنت أقضي ليالي بأكملها أحلم بالرغبات وأعدد الآمال.. ويا

لجمال تلك الليالي! حينئذٍ كان كل شيء أمامي، والآن أصبح كل شيء خلفي، ولكنني الآن مسرور بالواقع..

وقطع سيرج كلامه، ثم أردف يقول بعد لحظة:

- والواقع الذي أعيش فيه هو الكمال بالنسبة لي..

نطق سيرج بهذه العبارة الأخيرة في ثقة وعدم اكتراث ملأ نفسي بالألم، وكنت مقتنعة بأنه صادق فيما يقول.. فقلت أسأله:

- إذن فأنت لم تعد ترغب في أي شيء؟

فأجابني قائلًا وقد أدرك حقيقة شعوري:

- ليس هناك مستحيل!

ثم أضاف يقول وهو يضع يده من جديد على رأسي:

- أنظري كيف بللت رأسك.. إنك تغارين من أوراق الشجر والعشب الذي بلله المطر، وتريدين أن تكوني العشب وأوراق الشجر والمطر في آنٍ واحد.. أما أنا فأتمتع برؤية هذه الأشياء فقط.

فقلت له وأنا أحس بثقل تزداد وطأته على قلبي:

- ألا تندم على شيء في الماضي؟

وأخلد إلى الصمت مرة أخرى وأخذ يحلم، وخيل إليّ أنه يريد أن يتحدث بصراحة، ولكنه قال أخيرًا في اقتضاب:

- كلا..

فصحت أقول وأنا أثبت عيني في وجهه:

- ألا تندم على الماضي؟

فقال:

- كلا! إنني لا أباركه، ولكنني لست نادمًا عليه!

- ألا تتمنى إذن أن يعود الماضي؟

فقال وهو يشيح بوجهه ناحية الحديقة:

- إنني لا أرغب في ذلك مثلما لا أرغب في أن ينبت لي جناحان.. إن هذا ليس ممكنًا!

- ألا تريد أن تعيد بناء الماضي؟ أو توجه اللوم إليّ أو إلى نفسك؟

- كلا.. لقد سار كل شيء على خير ما يرام.

فقلت وأنا أمسك بيده كي أرغمه على الالتفات نحوي:

- أنصت إليّ! يجب أن تنصت إليّ.. لماذا لم تصارحني بما كنت تريده مني حتى أستطيع أن أعيش وفق هواك؟ ولماذا منحتني حرية كنت أسيء استعمالها؟ لماذا كففت عن تعليمي وتوجيهي؟

واستطردت أقول بصوت كان يزداد قوة، ويعبر عن الغضب البارد أكثر مما يعبر عن الحب الماضي:

- لو إنك أردت ذلك.. أعني لو أنك وجهتني توجيهًا آخر

لما حدث أي شيء على الإطلاق..

فقال وهو يلتفت نحوي في دهشة:

– وما الذي حدث؟ أن شيئًا لم يحدث أبدًا!

ثم عاد يقول وهو يبتسم:

– إن كل شيء على ما يرام.. على ما يرام تمامًا..

وفكرت أقول في نفسي والدموع تكاد تطفر من عيني: "أمِنَ الممكن أنه لم يفهمني؟ أو أنه لم يشأ أن يفهمني؟"

ولكنني قلت له نجاة:

– بما أنني لم أرتكب أي ذنب في حقك، فلا يمكنك أن تعاقبني بعدم اكتراثك وحتى باحتقارك.. أما ما حدث، فهو إنني أراك تنتزع مني كل غالٍ وعزيز دون أي خطأ من جانبي.

فصاح يقول وكأنه لم يفهم ما قلت:

– ماذا تقولين يا صديقتي؟

فقلت:

– دعني أنتهي أوَلا مما أريد أن أقول.. لقد نزعت مني كل ثقتك وحبك، وحتى احترامك، لمجرد أنني كففت عن الاعتقاد بأنك لم تكن تحبني بعد ما حدث بيننا.. آه! يجب على الأقل أن أصارحك ولو مرة واحدة بما يعذبني منذ مدة طويلة.. هل كنت

مذنبة لأنني لم أكن أعرف الحياة، ولأنك تركتني أكتشفها بمفردي؟ وهل أنا الآن مذنبة في الوقت الذي تبتعد عني دائمًا متظاهرًا بأنك لا تفهمني أو تفهم ما أريد، بينما قد فهمت أخيرًا ما يلزم المرء في هذه الحياة.. والآن، وقد انقضى علي نحوٍ عام وأنا أكافح كي أعود إليك، هل تريد أن تسير الأمور بحيث لا توجه اللوم إلى نفسك أبدًا بخصوص أي شيء؟ هل تريد أن تلقي بي من جديد في هذا النوع من الحياة، الذي سيجر الشقاء على نفسي ونفسك؟!

فقال يسألني في فزع ودهشة:

– وما الذي يدفعك إلى الظن بأنني أريد ذلك؟

– ألم تقل لي بالأمس إنني لا أجد الراحة هنا، وإن علينا أن نذهب من جديد إلى بطرسبرج لتمضية فصل الشتاء، وهي مدينة أشعر الآن بالبشع كلما فكرت فيها؟

وأضفت أقول:

– لقد تجنبت الحديث معي بصراحة، ولم تقل لي أية كلمة صريحة جميلة مع أنه كان يجدرُ بكَ أن تمدّ لي يد المساعدة.. وبعد ذلك، حينما أسقط، سوف توجه إليّ اللوم على هذا السقوط!

فقال في برود وقسوة:

– كفى.. كفى.. إن الذي تقولينه غاية في السوء، وهو يكشف عن

استعداد سيئ نحوي..

فقاطعته قائلة:

- يبدو إنك تريد أن تقول إنني لا أحبكِ! هيا قل ذلك! قله إذن!

وبللت الدموع عيني، فجلست على مقعد وغطيت وجهي بمنديلي محاولة أن أمنع الدموع الغزيرة، التي كانت على وشك أن تنهمر على وجنتي، وفكرت قائلة في نفسي: "هكذا يفهمني إذن؟ لقد ضاع كل شيء، وانتهى حبنا السابق!".

ولم يقترب مني مواسيًا، فقد كان مجروح الشعور مما قلت له، ولكنه لم يلبث أن قال بصوت هادئ جاف:

- لست أعرف كيف توجهين إليّ اللوم إلا إذا كنت تعتقدين أنني لم أعد أحبكِ كما كنت أحبكِ في الماضي؟

فتمتمت أقول من تحت منديلي:

- كما كنت تحبني في الماضي!

وبللت دموع المرارة منديلي، ولكنني قلت أخيرًا:

- إننا في هذا.. كلانا والزمن، نتقاسم الجرم بالتساوي.. إن كل وقت يناسبه وجه للحب..

فقال بعد لحظة من الصمت:

- إذا كنت تحبين أن أحدثك بصراحة، فسأخبرك بالحقيقة كلها.

لقد قضيت ليال بأكملها لا يغمض لي جفن في السنة التي عرفتك فيها.. كنت أفكر فيك وأبني حبي بنفسي، ونما ذلك الحب وترعرع في قلبي. وفي مدينة بطرسبرج، قضيت ليال بشعة بأكملها وأنا أحاول أن أحطم هذا الحب الذي كان مصدر عذابي. ولم أستطع تحطيمه، ولكنني تمكنت على الأقل من تحطيم ما كان يعذبني فيه. وأخيرًا هدأت، واستمر حبي لك، ولكنه حب آخر..

فقلت:

– هل تسمى هذا العذاب الأليم حبًا؟ لماذا أذنت لي بأن أعيش في المجتمع الراقي ما دمت تعتقد أنه مجتمع فاسد؟

– ولكن المذنب ليس المجتمع الراقي يا صديقتي..

– ولماذا إذن لم تستعمل سلطتك عليّ؟ لماذا لم تمنعني رغم أنفي؟ لماذا لم تقتلني؟ إن ذلك خير من أن أفقد كل ما يكون سعادتي.. لقد كان هذا أفضل بالنسبة لي، ولم يكن هناك داعٍ الخجل.

وبكيت مرة أخرى وأنا أغطي وجهي بمنديلي. وفي هذه اللحظة دخلت ماشا وسونيا إلى الشرفة في مرح وقد بلل المطر كل ثيابهما، ولكنهما كانتا مرحتين للغاية.. وكفتا عن الضحك حين وقع بصرهما علينا، وغادرتا الشرفة على الفور..

***

ومكثنا صامتين بعد خروجهما فترة طويلة، ولما استنزفت دموعي شعرت بالأسى يخف عن قلبي. ونظرت إليه فوجدته جالسًا وقد اتكأ برأسه على يديه، وبدا كما لو كان يريد أن يجيب على نظرتي بشيء، ولكنه اكتفى بأن تنهد في ألم، واتكأ برأسه من جديد على يديه..

واقتربت منه وأبعدت يديه.. وحينئذٍ التفت إليّ وقال وكأنه بحث عن الكلمات التي يتفوه بها:

- نعم يبدو إنكن - معشر السيدات- لابدّ أن ترفعن كأس الاستهتار حتى شفاهكن قبل أن تستطعن تذوق الحياة، وأنتن في ذلك لا تصدقن أبدًا تجربة الآخرين. في ذلك الوقت، لم تكوني قد توغلت بعد في عالم الميوعة والإغراء وإظهار الرقة؛ فتركتك تغمسين نفسك لحظة في هذا العالم، ولم يكن من حقي أن أمنعك من ذلك لمجرد أن ساعات الهوى ونزوات شبابي انقضت- بالنسبة إليّ- منذ زمن طويل..

قلت:

- إذا كنت تحبني، فلماذا إذن تركتني أعيش وسط هذا الجو المشبع بالميوعة؟

فقال:

- لأنه لم يكن من الحكمة أن تصدقيني، وكان لابدّ من أن تختبري هذا الجو بنفسك..

قلت:

– لقد كنت تفكر بعمق كبير، وهذا معناه إنك لم تكن تحبني..

وساد الصمت بيننا مرة أخرى، وأخيرًا قال وهو يقف فجأة:

– لقد قلت هنا منذ لحظة كلامًا قاسيًا. ولكنه الحقيقة.. نعم، إنه الحقيقة..

وبعد أن تمشّى لحظة في أرجاء الشرفة، وقف أمامي وأضاف قائلًا:

– نعم.. لقد كنت مذنبًا.. لقد كان يجب ألا آذن لنفسي بأن أحبك، أو أن أحبك ببساطة أكثر!

فقلت في تواضع وخجل:

– لننسَ كل شيء يا سيرج..

فقال بصوت خفت حدة جفائه بعض الشيء:

– كلا.. إن ما ينتهي لا يمكن أن يعود، والمرء لا يرجع أبدًا إلى الوراء..

قلت وأنا أضع يدي على كتفه:

– ولكن.. لقد عاد كل شيء يا سيرج..

فأمسك بيدي وضغط عليها قليلًا، ثم أبعدها عن كتفه وهو يقول:

– كلا.. إنني لم أذكر الحقيقة حينما ادعيت إنني لا أندم على الماضي. والواقع أني أندم على حبك الماضي وأبكي عليه. إنني

أبكي على هذا الحب الذي لم يعد يستطيع أن يعيش اليوم بصورة أكثر قوة. من المسئول عن كل ذلك؟ لست أدري.. قد يكون الحب لا يزال موجودًا، ولكنه لم يعد كما كان. إن مكانه لا يزال يملأ قلبي، ولكنه مهشم وبلا طعم، ولم تتلاش الذكرى والعرفان بالجميل ولكن..

فقاطعته قائلة:

– لا تتحدث هكذا.. فلنبعث هذا الحب كاملًا من جديد مثلما كان في الماضي..

ونظرت في عينيه مباشرة، ثم أضفت قائلة:

– هل يمكن ذلك؟

كانت عيناه صافيتين وهادئتين، وبدأت أحس بأن هدفي من الحديث مع سيرج لم يعد بعيد التحقيق. وكان يبتسم ابتسامة هادئة جميلة تشبه ابتسامة الشيوخ.. قال:

– إنك لا تزالين صغيرة السن، وأنا رجل عجوز.. ولم أعد أملك ما قد تريدين البحث عنه..

وأضاف يقول وهو لا يزال يبتسم:

– لماذا يخدع المرء نفسه؟

كنت صامتة إلى جواره، وكنت أشعر بالهدوء يعود إلى نفسي رويدًا رويدًا..

قال سيرج:

– ينبغي ألا نحاول أن نقرر الحياة، كما لا يجب أن نكذب على أنفسنا. ومن فضل الله علينا أن لم يعد هناك ما يعكر علينا حياتنا أو يثير الغضب في نفوسنا.. لقد سبق لنا أن استمتعنا بكل ما كنا نريد، وقد ظفرنا بنصيب وافر من السعادة.

***

وأشار سيرج بيده إلى المربية التي كانت تقترب منّا، وكانت واقفة إلى جوار باب الشرفة حاملة ولدنا فانيا بين ذراعيها، ثم اختتم حديثه قائلًا وهو ينحني على رأسي ويقبلها:

– لمن يجب أن نجتهد في شق الطريق؟ لطفلينا.. هذا ما يجب أن نفعل يا صديقتي العزيزة..

لم يكن الذي يقبلني رجلًا محبًا وإنما كان صديقًا قديمًا.. وكانت رطوبة الليل المشبعة بعبير الزهور تهبّ من نهاية الحديقة وتزداد جمالًا وقوة، وكانت هناك أصوات بعيدة منتشرة في الهواء تعقبها فترات بهدوء عميق، والنجوم تتكاثر في السماء..

ونظرت إلى سيرج، فشعرت بهم ثقيل تخف وطأته عن كاهلي وكنت أشبه ما أكون بإنسان يشعر بالراحة بعد أن انتزعوا منه عضوًا مريضًا كان يذيقه العذاب. وأدركت على الفور في وضوح أن عاطفتي، التي كانت تسيطر عليّ خلال تلك الفترة من حياتي قد اختفت بلا عودة.. بل لقد تلاشت أيضًا هذه الفترة نفسها من حياتي، وأصبحت عودتها شيئًا

مستحيلا ومؤلمًا وكريهًا على نفسي.

وقال سيرج في رفق:

– أظن أنه قد حان موعد تناول الشاي..

وذهبنا معًا إلى غرفة الجلوس.. وصادفت المربية مع ماشا أمام باب الغرفة، فأخذت طفلي بين ذراعي وغطيت قدميه الصغيرتين العاريتين وضممته بشدة إلى صدري وقبلته، وحينئذٍ حرك ذراعيه وهو نائم تقريبًا، ثم فتح عينين بدت فيهما الحيرة كما يفعل المرء حين يحاول أن يتذكر شيئًا، ولم يلبث أن لمع فيهما بريق من الذكاء وابتسم ابتسامة عريضة.

وأحسست بخمول لذيذ يشيع في أعضاء جسمي وأنا أحمل طفلي في حنان محاولة ألا أسبب له الألم، ورحت أكرر قائلة:

– إنك ملكٌ لي.. إنك ملك..

واقترب زوجي مني، وغطى وجه الطفل، ثم عاد فكشفه من جديد، وهو يقول مداعباً الطفل بإصبعه تحت ذقنه:

– يا إيفان سيرجييفيتش!

وغطيت وجه الطفل مرة أخرى، إذ لم أكن أريد أن ينظر إليه شخص آخر سوانا، ونظرت إلى زوجي فألفيت عينيه تضحكان وتنظران إليّ دائمًا، وكانت هذه أول مرة أشعر فيها بالسرور وأنا أتأملهما منذ زمن بعيد.

وفي اليوم نفسه، انتهت قصة غرامي مع زوجي.. وظلت العاطفة القديمة قائمة في قلبي ومعها تلك الذكريات العزيزة، التي لم يعد من الميسور أن نحياها من جديد.. لقد نشأ في قلبي حب جديد لأبنائي ووالد أبنائي. وكان هذا فاتحة حياة جديدة تكتنفها سعادة من لون مختلف.. وحتى هذه اللحظة، لم أستنفد بعد هذه السعادة، وأنا الآن مقتنعة تمامًا بأن السعادة الحقيقية للمرأة تكمن في بيتها وأولادها والمسرات العائلية النقية.

الفهرس